إبراز الفهم السليم
لرعاية البيئة في القرآن والسنة:
النظرة، ومعالجة المشكلات

د. أحمد صنوبر

. الاردن .

لحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن قضية البيئة ومشكلاتها مما يشغل بال العالم الآن بجميع طوائفه ومذاهبه وأديانه وأعراقه، وإن في عمق الأخطار المحدقة بالكرة الأرضية ما يدفع المختصين دفعا إلى رفع الصوت بالتحذير من مستقبل كارثي ينتظر البشر وغيرهم.

وإن الباحث في نصوص القرآن والسنة يرى أن الإسلام قد قدم نظرة وتشريعات ونظما في غاية الأهمية للحفاظ على البيئة والتعامل معها، وإن في فهم تلك النصوص فهما سليما ثم نشرها بين الناس وإظهار موقف الإسلام من تلك المشكلات الخطيرة وقيام أتباعه بدورهم الديني في الامتثال لتلك النصوص ما يجنب الأرض شيئا من الكوارث القادمة ويساعد في التخفيف من وطأة المشكلات الحالية.

بل إننا إذا علمنا أن الحفاظ على البيئة وصداقتها صار مذهبا لكثير من الناس في الشرق والغرب، بحيث إن صداقتهم لها غلبت على جميع أفكارهم وتوجهاتهم، وبعضهم لا يكاد يعرف إلا بها، فإن في نشر نظرة الإسلام وتشريعاته حول البيئة ما يحسّن صورة الإسلام في قلوب الكثيرين من أولئك، ويسهل انتشار الدعوة في كثير من أصقاع العالم.

ومن هنا كان لزاما على بعض الباحثين المسلمين أن ينشغلوا بهذه القضية، ويظهروا موقف الإسلام فيها، من خلال فهم سليم لنصوص الكتاب والسنة، ولذا كان هذا البحث.

وقد عرضت فيه النظرة الإسلامية للبيئة، وقارنتها بالنظرة الغربية لزيادة التوضيح، ثم فصّلت في وسائل معالجة المشكلات البيئية من خلال القواعد التي أرستها نصوص الكتاب والسنة.

ولم أتعرض فيه لتفصيل المشكلات البيئية وإثباتها، إذ الكتب العلمية والمجلات مملوءة بذلك، ولعل أهمها –في رأيي– باللغة العربية مجلة «البيئة والتنمية» الشهرية التي تصدر في لبنان، إذ تتابع المشكلات البيئية وتقدم الدراسات والتقارير المتميزة في ذلك، وبها أستغني عن ذكر شيء من ذلك هنا.

ولم أتعرض للتاريخ الإسلامي المشرق في كثير من جوانبه في الحفاظ على البيئة، إذ ليس هذا محل تفصيله.

وقد جاء البحث على الترتيب التالي:

المبحث الأول: النظرة الإسلامية للبيئة من خلال نصوص الكتاب والسنة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: النظرة الإسلامية للبيئة.

المطلب الثاني: مقارنة بين النظرة الإسلامية للبيئة والنظرة الغربية تجاهها.

وفي المبحث الثاني أفصل في: معالجة مشكلات البيئة المعاصرة في نصوص الكتاب والسنة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: معالجة أسباب المشكلة البيئية.

المطلب الثاني: القواعد الإسلامية العامة الآمرة بالمحافظة على البيئة.

المبحث الأول: النظرة الإسلامية للبيئة من خلال نصوص الكتاب والسنة:

أفصل في هذا المبحث النظرة الإسلامية للبيئة، معتمدا في ذلك على كثير من نصوص الكتاب والسنة، وبعض أقوال العلماء، ثم أقارن بين حاصل تلك النظرة والسائد من الفلسفات الغربية حول البيئة، لتتضح النظرة الإسلامية زيادة، إذ بضدها تتميز الأشياء.

المطلب الأول: النظرة الإسلامية للبيئة:

تتلخص النظرة الإسلامية للبيئة في لزوم احترامها والمحافظة عليها والإحسان إليها والاعتبار بها وشكر المنعِم عليها، والتحذير من الإضرار بها والإفساد، لكن مع استعمالها فيما خُلقت لأجله، وعدم تقديسها.

ويمكن استخلاص هذه النظرة من نص تراثي نفيس للإمام أبي حامد الغزالي ذكره في كتاب الشكر من كتابه «إحياء علوم الدين» فيه قوله: «وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد.

أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة، وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده: مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل.

فإن كان له غرض صحيح فله ذلك، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعا فانيان هالكان فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما: أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ((وسخر لكم ما في السموات وما فى الأرض جميعا منه))

نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا، وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم، بل تفي بحاجة واحدة، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما، فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد، فهو أولى به من غيره، فيرجح جانبه بذلك.

... وعبر الفقراء عن هذا الترجيح بالملك، وهو مجاز محض إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره؟»

ففي هذا النص لزوم المحافظة على البيئة واحترامها، وعدم الإفساد فيها إذ كسر غصن الشجرة من غير حاجة ممنوع، وكسره لحاجة لكن من ملك الغير إفساد وظلم.

وفيه وجوب شكر المنعم عليها، إذ غصن الشجرة نعمة من نعم الله لا ينبغي كفرها وجحدها بالإضرار فيها والإفساد، بل الواجب معرفة قدرها ومعرفة مقصود خلقها ومن ثم شكر خالقها والإحسان إليها.

وفيه بيان النظرة الإسلامية للبيئة من حيث استعمالها واستخدامها في تلبية حاجات الإنسان، إذ للمسلم أن يكسر غصن الشجرة وأن يذبح الحيوان وما إلى ذلك إذا كان له غرض صحيح، فإن رتبة الإنسان أرفع من رتبة الحيوان والأشجار، وكل ما حوله مسخر له، لا يستوي معه في الحقوق، ولذا لا تقديس في الإسلام للبيئة، يمنع من استعمالها أو يساويها برتبة البشر.

وفيه بيان أن المالك الحقيقي لهذه البيئة إنما هو الله سبحانه ملك الملوك، وملك البشر ملك مجازي، لا بد لهم فيه من اتباع أوامر المالك الحقيقي، مما يؤثر إيجابا على تعامل المسلم مع البيئة من حوله.

وما قرره الإمام الغزالي في هذا النص من النظرة الإسلامية للبيئة فيه فهم سليم تام لنصوص الكتاب والسنة المتعلقة بهذا الموضوع، ويمكن تفصيل نظرة الإمام الغزالي ومطابقتها لنصوص الكتاب والسنة في النقاط التالية:

أولا: النصوص القرآنية والنبوية الكثيرة المؤكدة ضرورة التفكر والاعتبار بالمظاهر البيئية من حولنا لنستدل بها على خالق واحد، يملك كل شيء ملكا حقيقيا:

ولقد حدت تلك الكثرة بالعلامة ابن القيم الجوزية أن يصف الآيات الواردة في التفكر في خلق الله تعالى بأنها من «أجلِّ مقاصد القرآن»[1]، وأن يقرر أن «أحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكر في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته»[2].

---

[1] ابن القيم، مفتاح دار السعادة 45/2.

[2] ابن القيم، مفتاح دار السعادة 68/2.

وفي العبارة الأخيرة زيادة توضيح لنظرة المسلم للبيئة، إذ ليس المقصود بالتفكر تلذذ النفس، والانشغال بجمال البيئة، إن الهدف السامي لذلك التفكر هو ما وراء هذا الجمال البديع، من الاستدلال به على قدرة الخالق ووحدانيته وحكمته، ومن ثم تعلق القلب به لا بمخلوقاته.

وقد جاءت تلك الآيات متحدثة عن الأرض وعن السماء والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، مذكرة قارئها العربي الذي كان يفترش الأرض ويلتحف السماء، وقد لا يرى في يومه إلا الشمس والقمر والنجوم والدواب والنيران، بأن كل هذه المفردات التي يعيش معها حياته وقد لا يعرف غيرها: خلق من خلق الله، أحسن صنعها وأبدعها، وأن لحياته هدفا آخر غير افتراش الأرض والتحاف السماء وحلب الشاة ورؤية الشروق والغروب، إنه وإياها خلقوا لهدف آخر أسمى وأعظم، ولم يزل هذا التذكير ينادي البشرية جمعاء، إلا أن تلقّي الناس له يختلف بحسب استعداداتهم وقربهم من هذه المفردات.

وأكتفي من تلك الآيات الكريمة الكثيرة بموضع واحد جمع فيه الحق سبحانه معظم مفردات البيئة من حولنا فقال: « [illegible]

الآيات (الأنعام 95-99).

إنه تأكيد قرآني مستمر على أن الخالق لجميع هذه المفردات واحد، وأنه لا بد من النظر فيها والتفكر لا من حيث مصلحته الذاتية معها، ولا من حيث منافعها الوقتية، بل من حيث كون مبدعها وخالقها قد أنشأها على صورة لا مثيل لها ولا نظير، فهو مستحق لأن يعرف ويعبد ويوحد.

وهكذا إذا تأملت جميع الآيات القرآنية الداعية إلى التفكر تجدها هادفة إلى معرفة الحق سبحانه وصفاته.

بل إننا نجد في السنة أحاديث كثيرة تحض المسلم إذا رأى مفردة من مفردات بيئته أن يذكر ربه ويدعوه ويسأله، إذ إنه لا يتعامل مع هذه المفردات على أنها مستقلة بذاتها، إنها مخلوقة لربها خاضعة له، فهو يذكره ويسأله ويشكره.

وفي أحاديث أذكار اليوم والليلة شيء كثير من هذا: في أدعية النظر إلى السماء في الليل[3]، وفي أدعية الصباح والمساء والتذكير بأن الملك لله وحده[4]، وفي دعاء مخاطبة الهلال[5]، ومخاطبة الأرض إذا نزلها في الليل[6]، وفي أدعية ركوب الدابة[7] وهبوب الريح[8] وصياح الديكة[9] وسماع الرعد[10]، مما يجعل حياة المسلم المليئة بمفردات البيئة مليئة أيضا بتعظيم الله وذكره إذا رأى تلك المفردات، إنه لا يراها إلا مخلوقة لخالق عظيم قدير حكيم.

وعليه فإن نظرة الإسلام للبيئة تتجاوز المشهد المادي إلى مشهد روحي إيماني، يتضمن الكثير من معاني الاحترام والتعظيم لتلك المظاهر على أنها من خلق الله، وبها نستدل على معرفته سبحانه.

---

[3] أخرج الحديث البخاري (4569) ومسلم (763) وانظر النووي الأذكار ص63.

[4] أخرج الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود (2733) وانظر الأذكار 142.

[5] أخرج الحديث الترمذي (3451) وقال: حديث حسن، وانظر الأذكار ص313.

[6] أخرج الحديث أبو داود في السنن (2603) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقد قال الحافظ ابن حجر: حديث حسن، انظر الأذكار للنووي ص367.

[7] وانظر الأذكار ص358.

[8] أخرج الحديث مسلم، عن عائشة رضي الله عنها (899) وانظر الأذكار ص298.

[9] أخرج الحديث البخاري (3303) ومسلم (2729) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر الأذكار ص477.

[10] أخرج الحديث مالك في الموطأ 992/2، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وقال النووي في الأذكار ص302: بإسناد صحيح.

ثانيا: النصوص القرآنية المظهرة لاستخلاف الإنسان على هذه البيئة، وأنها مسخرة له، ليعمر الأرض[11]:

وفي نص الإمام الغزالي المتقدم بيان لمعنى من معاني تسخير البيئة للإنسان، ومعلوم أن الله سبحانه قد جعل الإنسان خليفة على هذه الأرض، بقوله تعالى: «

» (البقرة:30) وقوله: «

» (الأنعام:165)، وأن مقتضى الخلافة عمارتها عمارة كاملة شاملة، «

» (هود:61)، عمارة يحقق فيها الإنسان جميع مطلوبات الله تعالى منه، ليكون فيها خليفة بحق[13]، وأنه أسبغ أنواعا من النعم على هذا الإنسان ليمكنّه من القيام بهذه المهمة على أتم وجه، وأهم تلك النعم: نعمة العقل والفهم والإدراك، ونعمة القدرة والقوة والتمكين، وبها يتميز عن غيره من سائر المخلوقات، «

[11] استفدت هنا كثيرا من الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «منهج الحضارة الإنسانية في القرآن» والدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» و الدكتور فاروق أحمد الدسوقي، «استخلاف الإنسان في الأرض، نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلامية».

[12] أخذت بأقوال كثير من المفسرين الذين فهموا الخلافة على أنها خلافة لله في أرضه، انظر ابن عاشور 398/1-399 مثلا، ولم أتعرض للاختلاف الحاصل بين المفسرين في معنى كون آدم عليه السلام خليفة، ولاستجلاء الموضوع انظر ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية398/1. وقد قال البيضاوي في تفسيرها135/1 : «والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم، وتنفيذ أمره فيهم»، وقال ابن عاشور399/1: «فالخليفة آدم وخَلَفِيَّتُه قيامُه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقيُ ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي».

[13] قال ابن عاشور108/12: «والاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسّين والتاء للمبالغة كالتي في استبقَى واستفاق. ومعنى الإعمار أنهم جَعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأنّ ذلك يُعدّ تعميراً للأرض حتى سُمّي الحرث عِمارة؛ لأنّ المقصود منه عَمر الأرض» .

»(الإسراء 70) .

ونعمة أخرى عظيمة هي تسخير الحق سبحانه الأرض بما فيها وما عليها لخدمة الإنسان، قال تعالى «
» (البقرة: 29). وقال: « 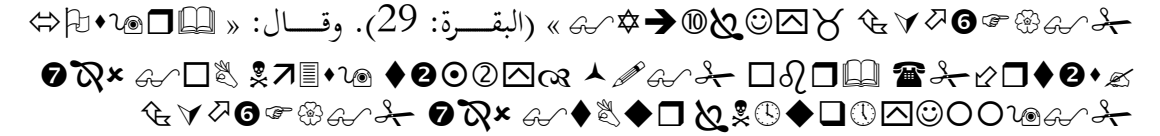

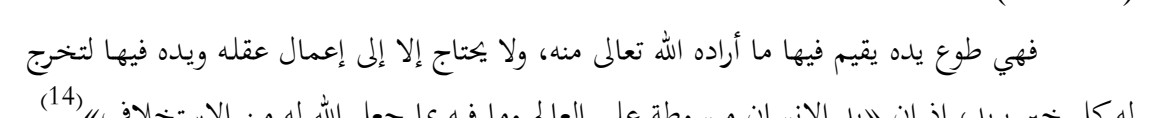
(لقمان:20).

فهي طوع يده يقيم فيها ما أراده الله تعالى منه، ولا يحتاج إلا إلى إعمال عقله ويده فيها لتخرج له كل خير يريد، إذ إن «يد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف»[14].

وإذا اجتمعت هاتان النعمتان: نعمة العقل والقدرة ونعمة التسخير والتذليل، تأهل الإنسان للقيام بحقوق الخلافة على وجهها التام، إذ لا يعوزه فكر ولا تنقصه قدرة، وبين يديه دليل الاستخلاف المتمثل بمنهاج الشريعة.

وقد فهم علماؤنا السابقون من نصوص الكتاب الكريم أن الاستخلاف ووظيفة عمارة الأرض بالمعنى الشامل من أشرف وظائف هذا الإنسان، إذ خلقه الله تعالى لها وأكرمه بما يتميز به وسخر له كل ما حوله، فإذا انشغل الإنسان عن وظيفته هذه بالملذات والشهوات والمتع ولو كانت في الأرض هذه نفسها فإنه قد تنكب عن الصراط الذي أراده الله تعالى له أن يسير فيه، وهو أشبه بالبهائم بل إن البهائم خير منه، إذ إنها تقوم بوظيفتها ولم يقم هو بها.

وقد أتى على بيان ذلك بيانا جميلا الإمامُ الراغب الأصفهاني (ت502هـ) في كتابه «الذريعة إلى مكارم الشريعة» حيث قال: «والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

1. عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: «
(هود:61).
2. وعبادته المذكورة في قوله تعالى «

» (الذاريات:56).

---

(14) ابن خلدون، المقدمة ص380.

3. وخلافته المذكورة في قوله تعالى «
» (الأعراف:129)....»

ثم إنه بعد أن قرر هذا بين أن شرف الإنسان قيامه بوظيفته هذه، وإلا فالبهائم خير منه، قال: «وكل ما أوجد لفعلٍ ما فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل منه، ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه، كالفرس للعَدْو، والسيف للقطع والعمل المختص به في القتال، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصا، فإما أن يطرح طرحا، وإما أن يردّ إلى منزلة النوع الذي هو دونه، كالفرس إذا لم يصلح للعدو في الكر والفر اتخذ حمولة أو أعد أكولة، والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشارا.

فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا لعبادته ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه!»[15].

فعمارة الأرض بمعناها العام وظيفة الإنسان في هذه الدنيا، وإذا انشغل بملذاته وشهواته عن ذلك فإنه قد تنكب عن مهمة الخلافة التي كلفه الله تعالى بها والأنعام خير منه كما عبر بذلك العلماء وأنكروا عليه، ولم يَفُتْهُم أن ينكروا أيضا على من أعرض عن عمارة هذه الأرض زهدا فيها واحتقارا لها، فراح يفرّ بكليته من وظيفة الاستخلاف فيها زاعما رغبته في الآخرة[16].

وإذا تقرر هذا فإنّ من مقتضى الخلافة والعمارة والتسخير جملة أمور:

الأول: أن لا ينظر المسلم إلى هذه المخلوقات التي حوله –وأعظمها الأرض– نظر استخفاف واحتقار، إذ هو مخلوق مثلها، بل هو مخلوق في غاية الضعف والمهانة لولا إكرام الله تعالى له بتلك الصفات، وليس ما حوله إلا وسائل مسخرة له، ذللها الحق سبحانه للإنسان ليقوم بتكاليف ربه عليها، ولذا فإن رعايتها والمحافظة عليها واحترامها والإحسان إليها لا بد منه، وفق دليل الاستخلاف (القرآن والسنة).

وإذا تقرر هذا فإن عمارته لهذه الأرض لا من جهة اعتقاده بأنه خليفة من قبل الواحد جل جلاله يسير به في دروب من التكبر والعجرفة على هذه الأرض.

وقد قص الله تعالى علينا أخبار أقوام عمروا هذه الأرض وأثاروها لكنهم لم ينتهجوا منهج خالقهم، ولم يدينوا له بالسيادة، فدمرها الله تعالى عليهم. « 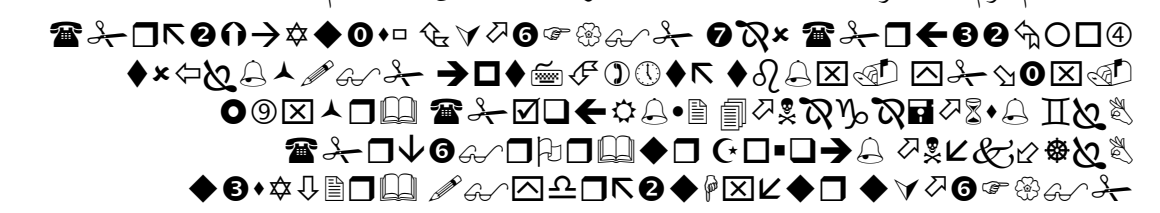

---

[15] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص83. وانظر القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص156.

[16] انظر مثلا إنكار الحافظ ابن حجر وغيره على من تزهد معرضا عن عمارة الأرض في الفتح 4/5.

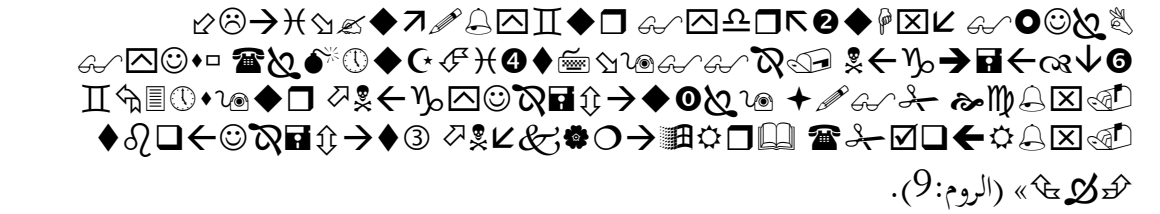
(الروم:9).

فالاعتراف بالعبودية هو الذي يحقق العمارة المثلى للأرض من غير استخفاف بالبيئة ولا احتقار لها.

الثاني: أن المسلم لا بد له من استعمال البيئة واستخدامها لا الإعراض عنها أو تقديسها، إذ البيئة من حوله مسخرة له، وهو أرفع رتبة منها عند من خلقه وخلقها، ومن هنا جاءت نصوص القرآن والسنة بإباحة ذبح بعض الحيوانات بغرض أكلها والانتفاع بجلودها، وأذنت بركوبها وحمل المتاع عليها، قال تعالى: « 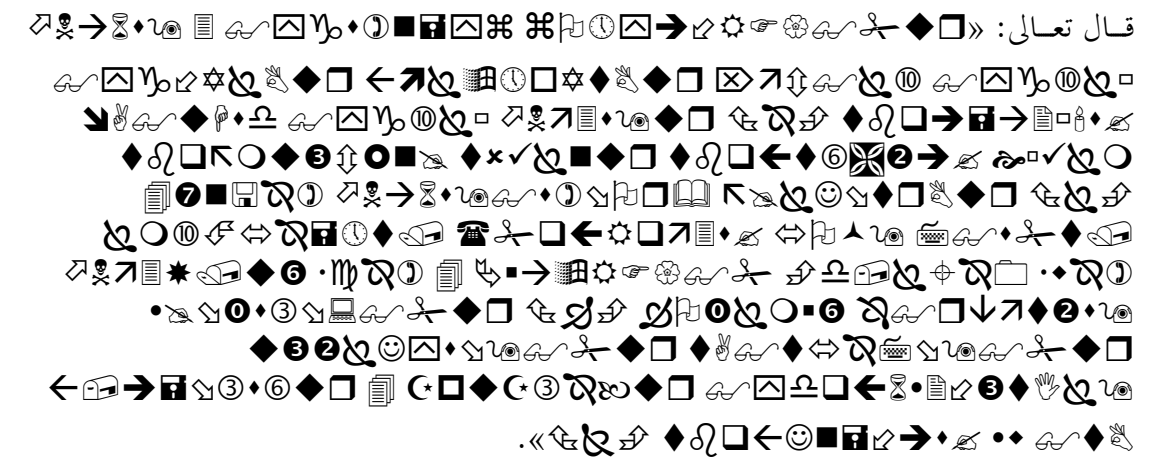
».

وليس في هذا الإذن بذبحها واستخدامها ما يعارض النظرة الإسلامية المقتضية للمحافظة عليها واحترامها، إذ لا تقديس للبيئة في الإسلام، فاستخدامها والانتفاع بها لا بد منه، وهو من مقتضيات تسخيرها لتتحقق عمارة الأرض، وليست هي على رتبة واحدة مع الإنسان ليقال: لا حق له في ذلك.

وفي سياق عدم تقديس البيئة جاءت الآية القرآنية التي تأذن للمسلمين في قطع نخيل بني قريظة بعد أن شاقوا الله ورسوله وغدروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وجاهروا بحرب المسلمين، فحاصرهم المسلمون وقطعوا نخيلهم، وأنزل الله تعالى لهم إذنا بذلك فقال: «
(الحشر:5)، إذ اقتضت مصلحة الحرب وإخافة الأعداء والنكاية بهم ذلك، وحفظ نفوس المسلمين أولى من حفظ الأشجار[17].

[17] وقد اختلف علماء الإسلام في جواز قطع أشجار العدو وتحريقها، فذهب الجمهور إلى جوازه، وروي عن الليث وأبي ثور والأوزاعي عدم جوازه. انظر: النووي، شرح مسلم 50/12، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن 18/ 9، وانظر تعليق الإمام الترمذي على حديث تحريق نخل بني النضير في الجامع (1552).

الثالث: أن استعمال هذه البيئة والانتفاع بها في عمارة الأرض لا يتحقق إلا بدراستها والغوص في فهمها غوصا عميقا، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة حاضة على تعلم أسرار الكون مثل قوله تعالى «

» (يونس: 101).

وعليه فالبيئة أيضا محل للدراسة والتعلم من جهتين: جهة فيها زيادة تعظيم لخالقها، وجهة فيها زيادة فهمها لينتفع بها.

ثالثا: النصوص القرآنية المبينة لعظمة نعمة البيئة، وأن لا بد من شكرها، ولا يجوز كفرها، وإلا تعرّضت للسلب:

وفي هذه النصوص تظهر نظرة الإسلام الإيمانية الروحية المرتفعة عن حضيض النظر إلى المنافع والملذات، وهذه النظرة تؤكد على أن جمال البيئة وحسنها وبهجتها نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان، يُكرم بها جميع الناس تفضلا ورحمة، ويزيد في إنعامه على أهل طاعته ومحبته، وشكر الخالق على هذه النعمة واجب، وإنما يكون الشكر بصرف العبد جميع ما أنعم الله عليه فيما خلق لأجله، ومن ثم فإن هذه النعمة العظيمة قد تُسلب وتزول إن خالف هذا الإنسان أوامر ربه واتبع شهواته، ولم يستقم وينتج بنهج خالقه.

فالبيئة على هذا في علاقة وثيقة بالقضايا الإيمانية الصرفة، ولذا كثرت الآيات المنبهة إلى الشكر بعد الحديث عن نعمة تتعلق بمفردات البيئة، فقد ذكر الحق سبحانه نعمة الشمس والقمر والليل والنهار ثم أتبعها بذكر الشكر فقال: «

» (الفرقان:61-62).

وذكر نعمة البحار على الناس ذاكر الشكر بعدها فقال: «

» (النحل 14) .

وعن نعمة الحيوانات قال سبحانه: «

(يس:71- 72).

فالشكر على هذه النعم البيئية العظيمة وظيفة أخرى مهمة من وظائف المسلم، مقتضية لمزيد من الإنعام والإكرام في البيئة نفسها وفي غيرها.

والشكر هنا عمل إيماني روحاني صرف فيه اعتراف من العبد بفضل مولاه وكرمه، وخضوع وتذلل واستغفار له على التقصير، ولا علاقة له بالأسباب المادية، ومع ذلك فإن الأسباب المادية تخضع له وتتسق معه.

ولعل أشهر الأمثلة على ذلك أن الاستغفار يأتي بالمطر والجنات والأنهار، ولا علاقة لهذا بأسباب ظاهرة نعرفها، ولا بعلاقات مادية صرفة، قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: « 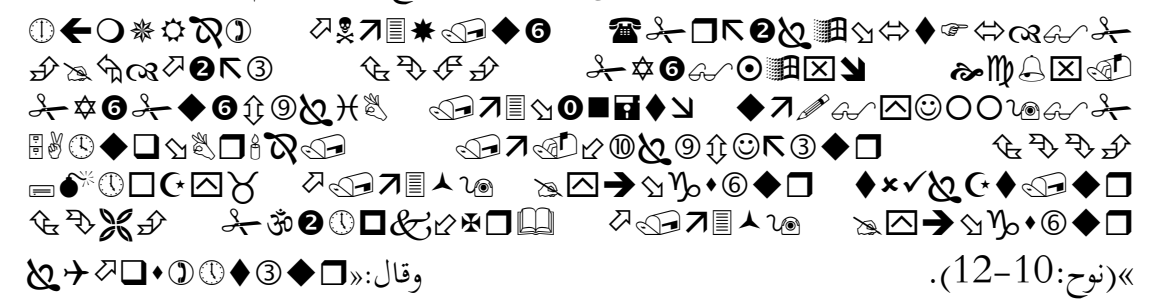
»(نوح:10-12). وقال:«

(هود:52)، وقال الله تعالى عن أهل الكتاب:«

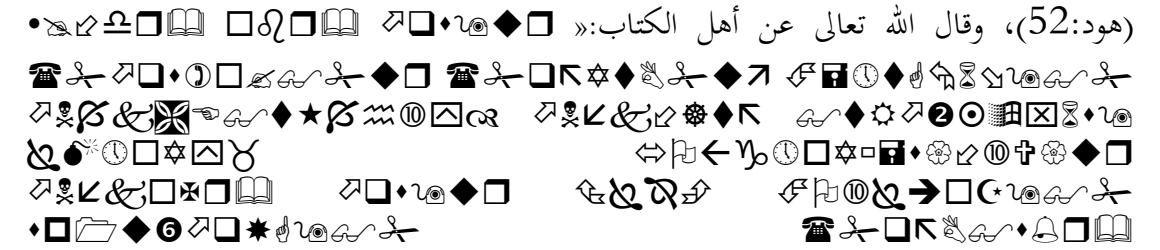
» (المائدة:65-66).

إن النظر المادي الصرف للبيئة لا يمكنه فهم هذه العلاقات الإيمانية المحضة، بل لا شك أنه سينكرها ويرفضها بناء على المفاهيم المادية السببية عنده، لكن المسلم الذي بنى عقيدته أولا على وحدانية ربه وأنه خالق كل شيء، متصرف في خلقه كما يريد يسهل عليه أن يتحقق بهذه المعاني.

لا سيما وقد قص القرآن الكريم علينا أخبار أقوام ممن مضوا، أنعم الله عليهم بجمال البيئة وحسنها لكنهم خالفوا أوامره فيها وعصوه واستكبروا، فدمر الله تعالى –المتصرف بكل شيء على الوجه الذي يريد– عليهم جمال بيئتهم، وأبدل نعمهم عقوبات بما كفروا، ومن الأمثلة المشهورة في كتاب الله العزيز على هذا، قصة سبأ(سبأ:15-17)، وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم (17-27)، وقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، (الكهف : 32-44).

رابعا: النصوص القرآنية والنبوية المؤسسة لعلاقة الحب بين المسلم والبيئة:

لقد عمدت النصوص القرآنية والنبوية إلى إقامة علاقات نفسية وثيقة بين الإنسان والبيئة، ملؤها الحب والعاطفة، تنتهي به إلى احترام للبيئة وتعظيم لها، وللعاطفة جوانب لا تخفى في دوافع التصرفات الإنسانية.

وتتجلى هذه العلاقات في:

1. أن المسلم لا بد له أن يستشعر تسبيح المكونات معه لخالق واحد، وهو بذلك يبادلها حبا مشتركا، حبا منه لأنها تسبح ربها خالقه، وحبا منها إليه لذلك.

إن اعتقاد المسلم أن جميع ما في الكون مسبح بحمد الله تعالى خالقه، ساجد له ينشئ علاقة لطيفة بينه وبين هذا الكون، أساسها الحب والود، فالمسلم الذي يقرأ قوله تعالى «

(الحج18) وقوله تعالى «

44) لا يسعه إلا أن يعلن تعظيمه لهذه الكائنات وحبه لها ووده، ومن ثم فلن يتوانى في المحافظة عليها والرعاية لها[18].

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الود وهذا الأنس بهذه المخلوقات بهذا الحديث الرائع الذي قاله: «أحد جبل يحبنا ونحبه»[19].

والحيوانات أيضا تسبح خالقها، ولذا كان من أوجه شبهها بنا المذكور في قوله تعالى «

---

[18] انظر: القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام ص 29.

[19] أخرجه البخاري (4422) ومسلم (1392) من حديث أبي حميد رضي الله عنه، وانظر: القرضاوي، رعاية البيئة ص29.

»(الانعام38) أنها تسبح[20]، وكان ذلك دافعا قويا لئلا تؤذى، فقد جاء في الحديث « أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح»[21]، فكونها أمة من الأمم تسبح خالقها سبب قوي للمحافظة عليها واحترامها.

2. لقد وجه القرآن الكريم نظر الإنسان إلى علاقة حب لطيفة مع هذه الأرض، إذ منها خُلق، وفيها يعود، ومنها يخرج «

» (طه:55) فالأرض مستقر لهذا الإنسان، وهي أشبه ما تكون بأمه التي حملته ورعته، وقد قرر هذا ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» في حديثه عن الأرض أجمل تقرير فقال:«ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض: السهل والوعر والجبال والرمل، لينتفع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ما خلق له، **وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه**، إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها.

وجعلها سبحانه كفاتاً للأحياء ما داموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها، فكانت كفاتاً لهم، تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول: رب هذا ما استودعتني، وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر»[22].

إنها أمنا التي نعيش عليها ونحبها وتضمنا أحياء وأمواتا، ولذا جاءت الآية تصف عباد الله تعالى الصالحين بأنهم يمشون على الأرض هونا، إنه تواضع ومحبة وتعظيم.

وقد جاء في تعبير سلفنا الصالح أن الأرض أمنا[23]، وورد أيضا في أحاديث لا تصح[24]، مما يدل على علاقة ودية جميلة بين الأرض والمسلم.

---

[20] انظر تفسير الرازي 213/12.

[21] أخرجه البخاري (3019) ومسلم(2241).

[22] ابن القيم، مفتاح دار السعادة 2/ 90.

[23] انظرالخليلي في الإرشاد 910/3ناقلا ذلك عن إسحق بن راهويه، قوله: الأرض أمنا، قال الله تعالى: «

» (طه:55)

ثالثا: ولم يقتصر الشعور على جهة واحدة فلا بد للمسلم أيضا أن يستشعر علاقة محبة نابعة من البيئة التي حوله إليه، فإن «الحيوان والجماد يفرح بالصالحين» كما قرر علماؤنا السابقون[25]، ويمكن ذكر أمثلة عديدة لذلك منها:

– أن المسلم النافع لمجتمعه، معلم الناس الخير، يعلم بأن كل شيء حوله يحبه ويستغفر له ويدعو، حتى النملة في جحرها وحتى الحيتان في بحرها، إذ قد جاء في الحديث «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير»[26].

وقد ذكر علماؤنا أن من أوجه استغفارها له أنه يوصي بالإحسان إليها، ودفع الضر عنها وعدم تعذيبها. قال الإمام الحليمي شارحا وجه استغفارها له:« وحكمته أن صلاح العالَم منوط بالعالِم، إذ بالعلم يدري أن الطير لا يؤذَى ولا يقتل إلا لأكله، ولا يذبح ما لا يؤكل لحمه، ولا يعذَّب طير ولا غيره بجوع ولا بظمأ، ولا يجلس في حر ولا برد لا يطيقه، وأن إقرار حيتان البحر في الماء إذا لم تكن إليها حاجة واجب، وأنه لا يجوز التلهي بإخراجها من الماء والنظر إلى اضطرابها بالبر بغير قصد أكلها، وإذا صيدت للأكل يجب الصبر عليها لتموت ولا يجوز فتحها بعصا أو حجر إلى غير ذلك»[27].

وذكر هذا المعنى أيضا الحافظ ابن رجب في «شرح حديث أبي الدرداء» وزاد عليه معنى لطيفا آخر، قال: «ويظهر فيه معنى آخر: وهو أن سائر الحيوانات مطيعة لله قانتة له مسبحة له غير عاصية، فكل خلق مطيعين لله يحبون أهل طاعته، فكيف به (أي العالم) وهو يُعرّف بالله وبحقوقه وطاعته؟»[28].

– وقد جاء في الأحاديث أن الفرس تدعو كل سحر لصاحبها بالخير، فعن ابن شماسة: أن معاوية بن حديج مر على أبي ذر وهو قائم عند فرس له فسأله: ما تعالج من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته؟ قال: وما دعاء البهيمة من البهائم؟! قال: والذي نفسي

---

[24] فقد روى الطبراني في معجمه 65/5 أن رسول الله قال: "تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل فيها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة» وفيه ضعف.

[25] قاله ابن أبي جمرة، في بهجة النفوس 209/1 في شرحه لحديث «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» رواه البخاري.

[26] أخرجه الترمذي (2685) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

[27] نقله المناوي في فيض القدير 268/4.

[28] ابن رجب، شرح حديث أبي الدرداء ص79.

بيده ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول «اللهم أنت خولتني عبدا من عبادك وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده»[29].

– وإن الأرض والسماء لتبكي على فقد المسلم الصالح، فقد قال الحق سبحانه في حق من عصاه وتنكب طريق الهدى « ﴿ ﴾ »(الدخان29)، وكيف تبكي عليهم «ولم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء... ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم»[30]؟

إن الأرض لتحب المسلم الصالح الذي يعمرها عمارة شاملة كاملة، يعمرها بالعبادة، ويعمرها بالزراعة والاستثمار، والآية واضحة في ذلك، وفي تفسيرها عند ابن كثير عدة آثار عن الصحابة والتابعين في بكاء الأرض والسماء على المسلم الصالح منها عن علي رضي الله عنه وعن ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، ومنها قول مجاهد: «ما مات مؤمن، إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل؟»[31].

– ويؤيد هذا حديث أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فقال: «مستريح ومستراح منه» قالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[32].

إن الأرض والدواب والشجر تكره العبد الفاجر وتنتظر رحيله، وإذا رحل فلن تقطر عينها دمعة بكاء حزين عليه، بل هي فرحة برحيله، إذ كان يؤذيها إيذاء حسيا بتحميل الدواب ما لا تطيق، وبإيذاء

---

[29] أخرجه الإمام أحمد في المسند 162/5، وهو حديث صحيح، وله حكم المرفوع.

[30] ابن كثير، التفسير ص1549. وفي حديث رواه الإمام الترمذي(3255) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مؤمن إلا وله بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فإذا مات بكيا عليه، فذلك قوله عز وجل: « ﴿ ﴾ »(الدخان29)، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث. فالحديث ضعيف.

[31] ابن كثير، التفسير ص 1549-1550.

[32] أخرجه البخاري (6512) ومسلم (950).

الأرض بغصبها وصرف خيراتها في المحرمات، ومنعها حقها من الشرب وغيره، أو لأنها منعت المطر والخيرات بمعاصيه، كما يقول الداودي وغيره [33].

فإذا استشعر المسلم جميع أوجه هذه العلاقة اللطيفة بينه وبين البيئة، فإن احتراما وتعظيما يسيطر عليه تجاهها دافعا إياه إلى المحافظة عليها.

المطلب الثاني: مقارنة بين النظرة الإسلامية للبيئة والنظرة الغربية تجاهها:

تتلخص النظرة الإسلامية للبيئة بثلاث قواعد أساسية ذكرتها فيما سبق:

القاعدة الأولى: احترام البيئة والإحسان إليها وحراستها وحمايتها والمحافظة عليها من كل ما يضر بها.

القاعدة الثانية: ضرورة استخدامها واستثمارها والانتفاع بها والتعامل معها والكشف عن أسرارها والبحث في مكنوناتها.

القاعدة الثالثة: عدم جواز تقديسها، وجعلها في مرتبة واحدة مع البشر.

أما الفلسفات الغربية تجاه البيئة فقد شابها أنواع من التطرف:

تطرف مغرق في الهيمنة على البيئة واستغلالها، استمر قرونا، منذ الثورة الصناعية حتى زماننا، يرى أن البشر وحدهم أصل ومقياس كل قيمة، مما ولد غطرسة تدفع الناس إلى التعامل مع غير البشر على أنهم مواد خام إنما وجدت لإشباع حاجات البشر ورغباتهم[34].

وأساس هذا التطرف فلسفات غربية قبل بضعة قرون كفلسفة ديكارت الذي يرى الإنسان سيدا ومالكا للطبيعة، وفرنسيس بيكون (ت1626م) الذي يصر على أن نهاية المعرفة هي القوة، فنحن نفهم العالم حتى نتمكن من السيطرة عليه[35].

وقد كانت الثورة الصناعية التي عُدّت السبب الرئيس لمشكلتنا البيئية الحالية[36] مثالا صارخا على تطبيق تلك الفلسفات التي لا ترى للبيئة وزنا ولا قيمة، وترى وجوب الصراع والتحدي مع (الطبيعة)، فانفصل فيها الإنسان عن البيئة والطبيعة انفصالا تاما، بحيث لم يعد يشعر بها، ولا بآلامها

---

[33] انظر: ابن حجر، فتح الباري 365/11

[34] انظر: الفلسفة البيئية، ص19.

[35] انظر الفصل الهام الذي كتبه روجيه غارودي تحت عنوان من ديكارت إلى علم التقنية ص73-89 في كتابه «كيف صنعنا القرن العشرين» وانظر كتابه «وعود الإسلام» ص105، وانظر آل غور، الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان ص220-221، وص253، 257.

[36] انظر كافين رايلي، الغرب والعالم 115/2.

وحقوقها، وأصبحت البيئة – في أحسن تقدير- في نظره مجرد مستودع بسيط للمواد الخام أو الموارد، أو هي عدو جاثم مناسب للتدمير في أسوأ الحالات[37]، فاتسمت علاقته بها بعداء شديد، حتى قيل: «إن المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة، ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة»[38].

هذا كله بعد تطرّف لا مثيل له قامت به الكنيسة تجاه (الطبيعة وعلومها) فحرمتها ومنعتها وقاتلتها قتالا مريرا[(39)].

ثم لحق تطرف الهيمنة على البيئة واستغلالها: تطرف نشأ في الغرب في سبعينيات القرن الماضي شكّل ردة فعل على التطرف الأول، يمثله اتجاهات كثيرة:

اتجاه قائل بمساواة الإنسان بالحيوان، مدّعيا اشتراكهما في المعاناة ومن ثم فلا يمكن للإنسان أن يذبح الحيوان ويأكله، أو أن يربيه بقصد أكله!

وصاحب هذه الفلسفة الفيلسوف بيتر سينغر أحد أكبر الفلاسفة الآن في جامعة برنستون الأمريكية، وكان قد كتب مقالا في السبعينيات عنونه بـ «كل الحيوانات متساوية» أودع فيه آراءه في تحريم ذبح الحيوان وغير ذلك، ومن ذلك قوله: «بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الكائنات البشرية، خصوصا في المجتمعات المدنية المصنعة يحدث الشكل الأكثر مباشرة للتماس مع أعضاء من الأنواع الحية الأخرى في أوقات الطعام: إننا نأكلها، وبقيامنا بذلك فإننا نعاملها كمجرد وسائل لغاياتنا، ونعتبر أن حياتها وعافيتها في مرتبة أقل أهمية من مذاق صنف معين من الأطباق»[(40)].

وتبعه على ذلك بعض الفلاسفة الغربيين، وحركات كثيرة لحقوق الحيوانات.

وإن كان بيتر سينغر لم يدّع مساواة الإنسان إلا بالحيوان لاشتراكهما في المعاناة، فإن بعض الفلاسفة بعده رفضوا الاقتصار على ذلك وادعوا مساواة الإنسان بجميع الكائنات من حوله، وألغوا فضل الإنسان وتميزه على غيره من الكائنات، وقد كتب في ذلك الفيلسوف الأمريكي بول تايلور مقالته «أخلاقيات احترام الطبيعة»، ذهب فيها إلى أن دعوى كون البشر بطبيعتهم الخاصة متفوقين على الأنواع الحية الأخرى هي دعوى بلا أساس[(41)].

---

[37] ليزا نيوتن، نحو شركات خضراء، ص20.

[38] إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر ص 22.

[(39)] روجيه غارودي، وعود الإسلام ص113-115.

[(40)] بيتر سينغر، كل الحيوانات متساوية،ص69 مقالة مطبوعة ضمن كتاب «الفلسفة البيئية»، وانظر : ليزا نيوتن، نحو شركات خضراء ص120.

[(41)] بول تايلور، أخلاقيات احترام الطبيعة ص116، مطبوع ضمن «الفلسفة البيئية».

بل إنه يرى أن «وجود البشر غير ضروري بتاتا، كان من الممكن لأي رجل أو امرأة أو طفل سابق ألا يظهر على وجه الأرض وذلك لن يلحق أي ضرر ذي شأن بمصلحة الحيوانات والنباتات البرية، بل على العكس ربما كان ذلك مفيدا للعديد منها!»[42].

وكانت آراء الفيلسوف النرويجي آرني نايس في مقالته «حركة الإيكولوجيا العميقة» التي كتبها سنة 1986مثالا واضحا على هذه الفلسفة، فقد جعل للأشياء قيمة بحد ذاتها متساوية مع قيمة الإنسان، غير نفعها للعالم البشري[43]، وكان هذا اتجاها متطرفا آخر، أدى بـ «حركة الإيكولوجيا العميقة» -أحيانا-إلى تعريف البشر بأنهم مدمرون بطبعهم، وأنهم حملة الطاعون الذي يصيب الأرض بصورة مميتة، وأن علاج ذلك لا يكون إلا باستئصال الناس جميعا من على وجه الأرض، وقد قال مايك روزيل أحد قيادات جماعة «الأرض أولا» التي تعتنق مفهوم «الإيكولوجيا العميقة»: «إنك تسمع عن موت الطبيعة وهذا صحيح، ولكن الطبيعة ستكون قادرة على أن تعيد بناء نفسها بمجرد قطع رأس السلسلة الغذائية، ونحن المقصودون بذلك»[44]، فلا بد عندهم من «شن نوع من الحرب ضد الجنس البشري كوسيلة لحماية الكوكب»[45].

هذا كله تطرف من حيث الفلسفة أما من حيث الواقع العملي فقد تبع هذه الفلسفة تطرف في غاية الخطورة:

وهو تطرف جماعات بيئية قد أدى بها تقديسها للبيئة إلى إرهاب الناس الذين يؤذون البيئة – فيما يرون- ولذا تجد جماعات بيئية غربية مثل «جبهة تحرير الحيوان» في بريطانيا، تختطف وتعذب من له صلة بالتجارب على الحيوانات، وقد تضع قنابل في المختبرات التي تجري اختباراتها عليها، وقد يلقي أعضاؤها بماء النار على من يرونه لابسا معطفا من الفرو، ولا يقتصر ذلك على بريطانيا فلأمريكا نصيب أيضا[46].

هذا فضلا عن جماعات شهيرة نباتية، لا خِلقة، بل تحريما لإيذاء الحيوان!

---

[42] السابق، ص118.

[43] آرني نايس، حركة الإيكولوجيا العميقة، ص270، كتاب الفلسفة البيئية.

[44] آل غور، الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان ص220، وانظر: ليزا نيوتن، نحو شركات خضراء ص123.

[45] السابق.

[46] انظر مقالة هامة في ذلك سيدريك غوفرنور، محاربون من أجل حقوق الحيوان، مترجمة في موقع الحوار المتمدن (الرابط في الأسفل)، وانظر: ليزا نيوتن، نحو شركات خضراء ص125-126.

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=21647

وإذا كان بعض فلاسفتهم قبل ذلك قد قرروا أن لا تمايز لبني البشر على غيرهم، فغير مستغرب أن يخرج من بين جنباتهم من يتطرف هذه التطرفات، وقد يطلق عليها في بلاد الغرب «الإرهاب البيئي».

إلا أنني للإنصاف أذكر أن جيلا من أصدقاء البيئة الغربيين نشأ بين هذين التطرفين، ينادي بالحفاظ على البيئة وحمايتها ورعايتها دون إرهاب وتطرف، ولا ادعاء لمساواة بني البشر بغيرهم، إلا أن أساس محبتهم للبيئة والاهتمام بها: الشعور والعاطفة، ولا شيء فوق ذلك، مما يعني أن لا ضوابط تضبط هذا الشعور وهذه العاطفة، ولا منهج يقيدها، لذا فقد بالغ كثير منهم في البيئة فأضروا، وبلغ ببعضهم أن يعرض حياته للخطر والمغامرة في سبيل البيئة.

ثم إنني أظن أن فلسفة هؤلاء تقوم –بعد قيامها على الشعور والعواطف– على سعادة الإنسان واستمتاعه، لذا فلو سألت أي شخص منهم عن سبب اهتمامه بالبيئة فلن تجده يخرج من شعور نفسي أو نظر إلى مستقبل يتمتع فيه بنو البشر بحياتهم، فالأمر دائر عندهم بين الشعور العاطفي والمتعة.

فمن كل هذا يمكنني أن أخلص إلى أن الاهتمام الغربي بالبيئة إنما هو ردة فعل تطرفت في كثير من آرائها أو عواطف ذاتية ونفسية ونظرات في مستقبل استمتاع بني البشر بحياتهم.

وأين كل هذا مما قدمته لك من فلسفة الإسلام في نظرته للبيئة؟

وأهم ما أكرر هنا أن أسس المسلم في نظرته للبيئة نابعة من اعتقاده بوحدانية الله، قائمة على تحمله للخلافة في الأرض وعمارتها، مضبوطة بالمنهاج الذي أنزله الله تعالى على البشرية.

إن اعتقاد المسلم بوحدانية الله خالقه، وأنه مجرد مخلوق كغيره من المخلوقات لا حول له ولا قوة إلا بربه، وأنه تعالى متفرد في الخلق والأمر، وأنه لولا إكرام الله تعالى له بتلك الصفات لما تميز عن غيره من المخلوقات، إن كل هذا يضع من الجبروت والطغيان الذي تطلبه النفس البشرية، فتراها متذللة لخالقها مستكينة له ترجو كرمه ورضاه وفضله، ولن تجدها تتكبر على خلق الله وتزدريهم وتحتقرهم.

ثم إن المسلم إذا استشعر بعظم المسؤولية الملقاة على كاهله من الخلافة في الأرض وأن الله تعالى سخر له كل هذه الأشياء من حوله ليحقق المطلوب منه على أتم وجه، فإن رؤيته هذه تدفعه قدما لعمارة الأرض عمارة كاملة شاملة، لكنها مضبوطة بالمنهج الذي وضعه الله تعالى له وهو الشريعة الإسلامية، وأساس هذا المنهج كله هو أنه مجرد عبد يأتمر بما يقوله سيده.

إن أساس معنى خلافة المسلم في الأرض أن يكون عبدا لمن استخلفه، سيدا بين هذه الموجودات، فهو «عبد وسيد في آن واحد، عبد لمن استخلفه، وسيد على من هو مستخلف عليه... فإذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله فإنه يضيع سيادته في الأرض، لأنه إذا لم يحقق عبوديته لله وحده فإنه

سيسقط بالضرورة في عبوديته لغير الله، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير، وإذا لم يحقق الإنسان سيادته على كل شيء في الأرض، فإنه بالتالي يصعب عليه أن يكون عبدا لله عز وجل»[47].

وإن كل هذا يؤدي به إلى معنى في غاية الأهمية: ذلك أن المسلم إذا فهم كل هذا فإنه يتحرر من قيود الكائنات من حوله وينعتق من التعلق بها لذاتها، ومن ثم فهو متوازن في النظر لها، معتدل في التعامل معها، مستقر في قرارة نفسه تجاهها.

وذلك بخلاف من انشغل بها ولم يفهم حقيقة وظيفته فيها، فإنه يهدر حياته في حمايتها والحفاظ عليها ويفقد التوازن في النظر لها والاعتدال في التعامل معها كما رأينا.

ولقد أكد القرآن الكريم ذلك مرارا، فإنه مع بيانه تسخير الكون لهذا الإنسان أراد منه أن لا ينساق مع الكون وينشغل فيه عن ربه، فلم يزل يذكره بأنه مجرد مظاهر زائلة وخيال عابر...«

»(الشورى36) .

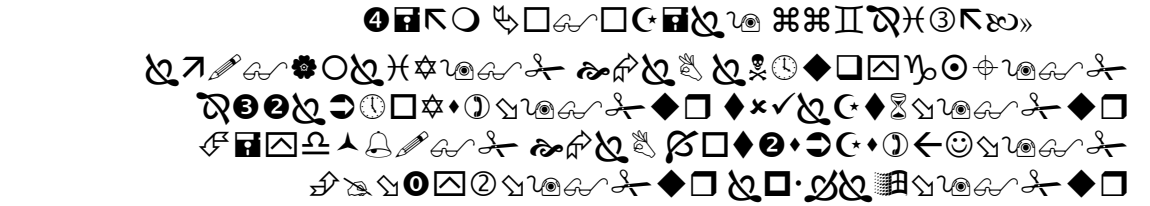

»(آل عمران:12).

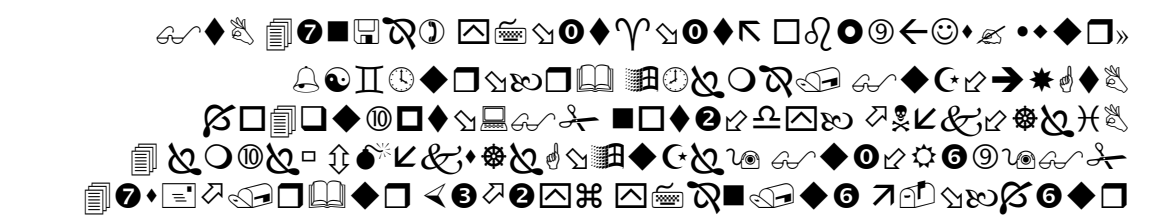

»(طه:131).

وإذا قابلت هذه الآيات بآيات تسخير الكون ووجوب عمارته، فإنك تنتهي إلى نتيجة في غاية الأهمية: ذلك أن الله تعالى أراد أن «يمارس الناس أسباب دنياهم وأسباب عيشهم وتقدمهم بدافع وظيفي، وبروح استشعار المسؤولية، لا بدافع من التعليق أو التعشق النفسي.

[47] فاروق الدسوقي، استخلاف الإنسان في الأرض، ص19.

ولن يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلا إذا اجتثت الدنيا ومغرياتها من قلوبهم وأدركوا تفاهتها وخطورة الاغترار بها.. (وتحررت) نفوسهم من بلاء التعلق بها والتعشق لها.

فإذا كلفهم الله بعد ذلك باستخدامها لعمارة الأرض وإنشاء المجتمع السليم، فسيقبلون على أشياء الدنيا وأجهزتها ومظاهرها وسائر ما فيها من أسباب المتعة إقبال من كلف بأمر فهو ينشط في سبيل تحقيقه وإنجازه»[48].

وإذا ربي هذا الإنسان على هذه التبصرة القرآنية فإنه يمارس الدنيا ممارسة الحاكم عليها المستخدم لها، ليصل بها إلى أهداف نبيلة سامية.

وهذا باب آخر تماما غير باب الثقافة الغربية المقبلة على البيئة بدافع من التعشق النفسي والنهم النفسي، تعشق للسيطرة عليها واستغلالها والتمتع بما يُجنى منها، أو تعشق عاطفي يرى فيها معبودا جديدا [49].

ومن هنا فإن نظرة المسلم للبيئة نظرة معتدلة مضبوطة واضحة، لا اضطراب فيها ولا اعتماد على ما لا يضبط، كالعواطف والمشاعر، فلن يصل به الحال إلى تقديس البيئة والغلو فيها، والتنقيص من مقدار خليفة الله تعالى فيها.

---

[48] البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص101.

[49] السابق ص 103، بتصرف.

المبحث الثاني: معالجة مشكلات البيئة المعاصرة في نصوص الكتاب والسنة:

إن مما لا يخفى على أحد الانتشار الهائل المشكلات البيئية في العالم أيامنا هذه، وإن من الخطأ بمكان أن نلجأ إلى معالجة هذه الظواهر دون أن ننشغل بمعالجة أسباب هذه الأزمات، ولذا فإنني سأفصل في معالجة الإسلام لأسباب المشكلات البيئية، ثم أفصل في القواعد الإسلامية التي يمكن بها درء المشكلات البيئية والمحافظة عليها:

المطلب الأول: معالجة أسباب المشكلة البيئية:

تدور أهم أسباب الأزمة البيئية عند المختصين بها إلى سبب رئيسي هو: الانفجار السكاني، إذ إنهم يحمِلون فكرة «ندرة الموارد البيئية» ويرون التزايد الهائل في معدلات النمو السكاني في العالم، فلاحظوا السببية، ومن ثم جعلوا المشكلة في ندرة الموارد والانفجار السكاني الذي أدى إلى ضغوط شديدة على تلك الموارد، وهدد استدامتها[50].

ومن الأمثلة الظاهرة على سرعة النمو السكاني أن عدد سكان الجزائر ارتفع من أحد عشر مليونا في ستينات القرن الماضي إلى ثلاثة وثلاثين مليونا عام 2005[51]! وارتفع عدد سكان العالم العربي من خمسين مليون نسمة منذ قرن إلى أكثر من 325 مليونا حاليا[52].

ويمكن إرجاع جل مظاهر المشكلات البيئية إلى الانفجار السكاني، فندرة المياه راجعة إليه، والتصحر الناتج عن الرعي الجائر وغيره راجع إليه، وهكذا....

ولذا كانت حلولهم معتمدة على هذه الفكرة، فكان من أهم ما قرروه لمعالجة المشكلات البيئية: تغيير شكل الاقتصاد، ولقد عمدوا إلى إبراز نوع جديد من الاقتصاد يقوم على احترام البيئة ومبادئها، أطلقوا عليه «اقتصاد البيئة»، موضحين أن القرائن مجمعة على أن «اقتصادنا العالمي يقوّض أساسه ببطء على عدة جبهات، فإذا أردنا أن يستمر التقدم الاقتصادي، فليس أمامنا إلا خيار أن نعيد هيكلة الاقتصاد العالمي بصورة منتظمة حتى نجعله متواصلا بيئيا»[53].

ومن أهم شروط هذا الاقتصاد البيئي: الحد من الانفجار السكاني، وتحقيق الاستقرار في حجم السكان[54].

---

[50] انظر مثلا: رشيد الحمد، وصباريني، البيئة ومشكلاتها ص138، ومصطفى كمال طلبة، إنقاذ كوكبنا، التحديات والآمال، ص209 وما بعدها، والزوكة، البيئة ومحاور تدهورها، ص221، وراتب السعود، الإنسان والبيئة ص41، وتقرير التنمية العربية لعام 2009 ص34-35، وآل غور، الأرض في الميزان، ص304-313.

[51] تقرير التنمية العربية لعام 2009 ص42.

[52] تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية، البيئة العربية، تحديات المستقبل ص viii.

[53] ليستر براون، اقتصاد البيئة، اقتصاد جديد لكوكب الأرض، ص85، 154.

[54] السابق ص85.

ومنها: تحويل قطاع الطاقة من البترول والفحم والغاز الطبيعي إلى طاقة الرياح والخلايا الشمسية والحرارة الجوفية، وكذلك أن تحل صناعة التدوير، وهي إعادة تصنيع المواد القابلة لذلك واستخدامها محل صناعات استخراج من المناجم والغابات[55].

والذي أراه أن النظرية البيئية الإسلامية لا تتفق مع هذه النظرية، إذ الإسلام داع إلى كثرة الإنجاب وزيادة أعداد السكان، وللعلماء المعاصرين أبحاث كثيرة حول منع تحديد النسل في الإسلام تغنيني عن بحث الموضوع هنا[56].

ولذا فإن أكثر الاقتصاديين الإسلاميين رفضوا فكرة «ندرة الموارد الاقتصادية» التي يقوم عليها الفكر الاقتصادي الغربي، وبينوا أن الموارد فيها حد الكفاية أو الوفرة، ولا نقص فيها عن تلبية حاجات البشر، ولذلك أدلة واقعية كثيرة لا مجال للتفصيل فيها هنا.

ومن الناحية العملية فإن التلوث البيئي العالمي الناتج عن ما يسمى بالعالم المتقدم الأقل إنجابا ونموا سكانيا أكثر بكثير من التلوث البيئي الناتج عن ما يسمى العالم النامي، الأكثر نموا وإنجابا.

والذي أراه أن السبب الرئيسي ومرجع الأزمة البيئية يعود إلى النظام المادي المسيطر وفلسفته في النظر إلى البيئة، ويتبعه قلة الوعي والإهمال.

وأعني بالنظام المسيطر: ذلك النظام الذي قطع الإنسان عن أي ارتباط له خارج طمعه في الاستزادة من الأشياء المادية سواء أكانت سلعا تستهلك أم أموالا تُكدّس، ومعلوم أن الأنظمة الاقتصادية المهيمنة على الشعوب الآن لا هم لها بقيم وأخلاق وأديان، إنما هو الربح والسوق.

ولما كان هذا النظام علمانيا صرفا، انفصل عن معاني الإيمان ومبادئ القيم، فإنه اتجه إلى موارد البيئة مستهلكا لها استهلاكا مفرطا، لا يريد من ذلك إلا زيادة أرباحه وتحقيق أطماعه، ويمكن إرجاع كثير من مشكلات البيئة إلى هذا الاستهلاك المفرط من قبل الشركات ومن قبل الإنسان.

إن صيرورة المال معبودا لذاته عند كثير من الناس أيامنا –لا سيما في بلاد الغرب– أنتج أفرادا وشركات همها الوحيد زيادة مخزون معبودها المادي، بأي وسيلة من الوسائل، ولو أضر بجميع بني البشر، ولو أضر بالأرض والبيئة التي لم تكن في يوم من الأيام منضوية تحت ملكهم.

ومرجع هذا كله إلى النظام الاقتصادي المسيطر على البشر حاليا، الذي يولي للاستهلاك أهمية أكبر، ويجمع اقتصاديوه «على أنه الغاية النهائية للنشاط الاقتصادي عامة، والنشاط الإنتاجي خاصة، فالإنسان ينتج ليستهلك، وعند هذا الحد تنتهي قصة الإنسان مع ممارسة النشاط الاقتصادي، بل لقد

---

[55] السابق ص 87.

[56] انظر على سبيل المثال: البوطي، مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجا، محمد أبو فارس، تحديد النسل والإجهاض في الإسلام.

وصل الحال عند الكثير منهم إلى القول بأن السعادة البشرية من حيث وجودها وعدمها وحجمها وعمقها دالة في الاستهلاك»[57]، وهو قول من يرى الاستهلاك غاية بحد ذاته، لا وسيلة لمقصود أعظم.

لقد ولد النظام الاقتصادي المسيطر أيامنا تعظيم الماديات تعظيما هائلا، حتى انقلب إلى مقصدٍ لوجود أبناء هذا النظام، وإن هذا الابن يقول بلسان حاله:«إنني أريد كل شيء لنفسي، وإنني أجد المتعة في الاقتناء وليس في المشاركة، كما يعني أنني يجب أن أكون دائما جشعا، لأنه إذا كان هدفي هو التملك، فإنني أكون بقدر ما تزيد ملكيتي، ويجب أن أشعر بأنني خصم للآخرين جميعا، لزبائني الذين أريد أن أخدعهم، ولمنافسيّ الذين أريد أن أقضي عليهم، ولعمالي الذين أريد أن أستغلهم، وإنني لا يمكنني أن أشبع، لأنه لا حد لرغباتي، وإنني لا بد من أن أحسد من يملك أكثر مما أملك، وأخاف ممن يملك أقل»[58].

«إن هوية المستهلك المعاصر تتلخص في الصيغة الآتية: أنا موجود بقدر ما أملك وما أستهلك»[59].

ولقد ضج علماء البيئة الغربيون من جنون الاستهلاك هذا حتى سمّى أحدهم –وهو ليستر براون، رئيس معهد سياسات كوكب الأرض في واشنطن– عصرنا هذا «عصر الإسراف» من حيث حجم المواد المستهلكة، في مقابل العصر الحجري والعصر البرونزي في الحقب السابقة[60].

ولما لم يكن لهذا الاستهلاك أي ضوابط وأي حدود في هذا النظام الاقتصادي لم نجد أدنى رادع أو حاجز يمنع فيه القوي من أكل الضعيف، فوضعت الشركات العالمية الكبيرة مصالحها المادية نصب عينيها ولم تأبه لغير ذلك، فقلبت أنظمة السوق، فلم يعد الإنتاج يهدف إلى تلبية الحاجات التي تظهر مبدئيا في السوق، بل على العكس، إلى توليد حاجات في السوق، من شأنها أن تزيد الأرباح وقوة الهيئة المنتجة، وإن كانت حاجات مصطنعة[61].

إن وظيفة إيجاد حاجات مصطنعة للناس تلبي متطلبات الإنتاج بوسيلة الإعلانات والدعايات قلبت النظام الاقتصادي رأسا على عقب، ولم تُنتج إلا أغنياء في عالم متقدم أكثر ثراء، وفقراء في عالم متخلف أكثر فقرا، وبيئة ملوثة، وأرضا مستهلكة، ومستقبلا تائها!

وإذا انتهينا إلى هذه الحالة من الخراب والدمار، فإن بيان موقف الإسلام من كل هذا يكاد يكون واضحا لا لبس فيه، ذلك أن الإسلام بنظمه وتشريعاته إنما يهدف لإخراج الناس من عبودية الأشياء إلى

---

[57] شوقي دنيا، المدخل الحديث إلى علم الاقتصاد، ص88.

[58] إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص20.

[59] إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ص47.

[60] ليستر براون، اقتصاد البيئة ص128.

[61] روجيه غارودي، حفارو القبور، نداء جديد إلى الأحياء ص66.

عبودية رب الأشياء، وإن المسلم لا يتعامل مع الأشياء إلا على أنها خلق الله تعالى وصنعته التي أحكمها، ثم استخلف عليها الإنسان ليقوم فيها بواجباته.

وعليه فلن نجد المسلم ناظرا إلى الأشياء على أنها غاية سعادته ومنتهاها كما تقدم عن كثير من الاقتصاديين، إنه يراها وسيلة لغاية أعظم وأسمى من عبادة ربه وعمارة أرضه.

ولذا جاءت تشريعات الإسلام بنظام اقتصادي لا ينفك عن القيم والأخلاق المؤسَّسة على تلك النظرة السامية إلى إنسانية الإنسان ووظيفته في هذه الحياة، والنظرة الراقية إلى الموارد التي استؤمن عليها، جاعلة من الاقتصاد برمته وسيلة «يمر بها الإنسان في تحقيق غايته التي يتوخاها»[62]، منضويا –أي الإنسان– تحت القواعد الهامة التي بينتها الآية القرآنية :«

(القصص: 77)، فالهدف –في الفكر الإسلامي–: الدار الآخرة، والوسيلة: النصيب من الدنيا الذي هو ملك لله في الحقيقة (آتاك الله) ولم يمتلكه العبد بجبروته ليبطش به، وقانونه: أن يحسن إلى كل شيء: إلى أخيه الإنسان، وإلى الحيوان، وإلى الأشجار وإلى الأرض، وكل ما خلق الله، لأن الله تعالى أحسن إليه، وأن لا يفسد في كل شيء[63]، إن الاقتصاد هذا في غاية الاختلاف مع الاقتصاد المادي، وهو في أكمل أحوال الرفق بالبيئة، وأفضل أوجه الاحترام للإنسان.

إن الاعتقاد بأن الكون وكل ما فيه مخلوق لله وحده، وأن كل البشر خلفاء الله لا فضل لأحدهم على الآخر، وأن إقامتهم في هذا العالم إقامة مؤقتة مآلها إلى الآخرة حيث يحاسبون أمام الله: من أهم الأمور التي تؤثر تأثيرا جديا في الطريقة التي تُستخدم بها الموارد النادرة التي هي أمانة من الله تعالى الذي خلقها وأرشد إلى قيم وقواعد سلوكية يُتعامل معها في إطارها[64].

إن الرفاه الحقيقي في نطاق الشريعة لا يتحقق بالضرورة بمجرد التركيز على تعظيم الثروة والاستهلاك، إنه يتطلب إشباع الحاجات المادية والروحية للإنسان بطريقة متوازنة، وهي بدورها تعطي للإنسان نظرة إلى إنسانيته وبيئته غير الأولى[65].

---

[62] محمد تقي عثماني، تكملة فتح الملهم 301/1، حيث عقد مقارنة هامة طويلة بين الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد المادي.

[63] انظر: تقي عثماني، تكملة فتح الملهم 302/1.

[64] شابرا ، مستقبل علم الاقتصاد ص97.

[65] السابق ص99.

والحيادية من أي موقف أخلاقي – التي قام عليه الفكر الاقتصادي الغربي- مرفوضة في الفكر الإسلامي، إذ لا مجال فيه للحياد القيمي بعد أن يقرر أن الله تعالى مالك كل الموارد والبشر مجرد أمناء عليها ولا بد لهم أن يستجيبوا لما يقوله مالكها ومالكهم[66].

في الاقتصاد الإسلامي لن يُترك السوق حرا يأكل القوي فيه الضعيف، ويعيث في الأرض فسادا وتدميرا لفقرائها ومواردها، بل لا بد فيه من دور فعال للدولة، تمنع الظلم والغش والتدليس، وتضرب على يد الفساد في الأرض والإفساد، وتأخذ كل حيطة للتأكد من أنه ليس هناك إكراه ولا خداع ولا استغلال للظروف الأليمة، ولا احتكار ولا تدمير للمؤن من أجل رفع الأسعار، فضلا عن منع أنواع التلويث الضار بالبيئة والإضرار بالآخرين، وقد قامت مؤسسة الحسبة في التاريخ خير قيام على هذا[67].

وفي الإسلام موقف قيمي واضح من الطمع ومن الاستهلاك، ومن ثمّ جاءت الآيات والأحاديث الذامة للحرص على الدنيا والطمع في شهواتها وملذاتها، واتجه الإسلام بنظمه وتشريعاته اتجاها عمليا لضبط استهلاك النفوس الجشعة، فمن تلك الضوابط[68]:

ضابط كمي: ذلك أنه نهى عن المزيد من الاستهلاك المعبّر عنه بالإسراف فقال تعالى «•••❐◆🖹➔🖬❑✂☎❐◆❸⇖⌗✂❑🡐◆❐✂☎❑➔🖬➔🖹◆❐» ❹🖬🔍◆↗⑥ •• ⓘ🡐❍✵☼🔍◑ 🗐 ☎✂☑❑➔▫🔍❸⇳❍➔✍ ✂🖋☺↘🖲✂❍🡐⇳❸🔍▫❍✓✖◆ ⛨🏳🏴 » (الأعراف: 31)، «والعجيب في شأن الاقتصاد الوضعي أنه قد شجع وبارك هذا النمط من الاستهلاك، لأنه الطريق الوحيد لتوزيع وتصريف المزيد من النتائج، والذي هو متطلب أساس لما يعرف بتعظيم العائد، لكن الاقتصاد الإسلامي يمنع ذلك معتبرا إياه نذير دمار وهلاك الفرد والمجتمع، مقدما في ذلك أداة تحليلية على درجة كبيرة من الأهمية هي «حد الكفاية»، وأوجب الالتزام به معتبرا إياه مطلبا شرعيا قبل أن يكون مطلبا اقتصاديا، ولم يقف الاقتصاد الإسلامي في هذا الموطن عند هذا الحد، بل قدم آليات وضمانات للالتزام والانضباط منها: النهي عن التقليد والمحاكاة، ومنها: الحجر على السفيه»[69].

ويدخل في هذا الضابط أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المسلمين بعدم إهدار ما يستهلكون وتعظيم نعمة الله في الأشياء بقوله: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان»، وأمرنا أن نَسلُت القصعة قال: «فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» أخرجه مسلم[70]،

---

[66] السابق ص107.

[67] السابق، ص114-119.

[68] انظر هذه الضوابط عند شوقي دنيا في المدخل الحديث إلى علم الاقتصاد ص92.

[69] شوقي دنيا، المدخل الحديث إلى علم الاقتصاد ص93.

[70] أخرجه مسلم (2034) من حديث أنس رضي الله عنه.

وسلت القصعة هو: مسحها، وتتبع ما بقي فيها من طعام، فلا بد للمسلم من تعظيم نعمة الله عليه وأن لا يدعها تذهب هدرا[71]، وإذا قارنّا هذا الحديث بواقع بعض البلدان الإسلامية لأدركنا الهوة السحيقة التي نزل إليها المسلمون أيامنا، فقد خلصت بعض الدراسات في بعض البلدان الإسلامية إلى أن ما يلقى ويتلف في صناديق القمامة من مواد غذائية قد تصل نسبته أحيانا إلى 45% من حجم القمامة[72].

ومن ترشيد استهلاك المسلم أن عليه أن يوازن بين إيراداته ونفقاته لئلا يضطر إلى الاستدانة التي نفّر منها الإسلام بأساليب شتّى، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن»[73]، وعليه فلا يحسن بالمسلم أن يعرّض نفسه لعقوبة مثل هذه من أجل استهلاك كماليات لا حاجة له بها[74]، وإذا قارنّا هذه النظم الرفيعة بما عليه أبناء المدنية المعاصرة أصحاب جنون الاستهلاك، لرأينا ما آل إليه حال الماديين من التعلق بالأشياء، فقد ذكر موقع قناة (CNN) الأمريكية أن ديون البنوك على كل أسرة أمريكية بلغت حوالي 10 آلاف دولار ما خلا السيارة والبيت لعام 2009[75]! أي أن هذه الديون متمحضة لشراء الطعام والملابس والرحلات وما إليها، وإذا علمنا أن الشركات والبنوك سعيدة بمثل هذا، إذ سيترتب عليه أضعافا مضاعفة من الربا: علمنا ما وصل إليه هوس الاستهلاك أيامنا، ولما سئل أحد مسوِّقي كبرى الشركات العالمية عن وظيفته قال: إقناع الناس أن يشتروا ما لا يحتاجون، بالمال الذي لا يملكون! فالاستدانة لتحقيق الشهوات والملذات أساس في هذا النظام.

وضابط نوعي: ذلك أن الإسلام يرفض استهلاك الخبائث من السلع والخدمات، مقتصرا على الطيبات، قال تعالى: «❐◆⑥◆↗♦❻ ❻✍✍♦❍←❍❶ ↖⚑✠❷❑♦↗⑥◆❐ ✍●🕓♦⌛✍❷❶➢➲✂ ↘♦■❓⑩❍❶⚑❍✂ ❶⚑❍❍⌛♦✠◈✠🕓♦⌛❍②❍❍✂✠◈✍❍ »(الأعراف 157)، وليست هذه الخبائث إلا ما يضر، سواء كان ضرره متعلقا بالجسم أو بالعقل أو بالدين أو بالنسل وغير ذلك، ولم يأت الاستهلاك في الإسلام للإفناء والتدمير بل هو عملية بنائية تكوينية[76].

---

[71] انظر: القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، ص219.

[72] زيد بن محمد الرماني، الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي، ص70.

[73] أخرجه مسلم 1886.

[74] انظر ترشيد الاستهلاك والدّين هذا، عند القرضاوي في دور القيم والأخلاق ص220-222.

[75] انظر:

http://money.cnn.com/magazines/moneymag/money101/lesson9/

[76] انظر: شوقي دنيا، المدخل الحديث ص94.

وضابط اجتماعي: ذلك أن الإسلام رفض الاستهلاك المظهري، والاستهلاك الاستفزازي، واستهلاك المحاكاة والتقليد، والاستهلاك الذي يضيق الفرص أمام استهلاك الغير من ذوي القدرات المالية الأدنى، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»[77]، فهذا الحديث تأصيل للضابط الكمي (الإسراف) وللضابط الاجتماعي (المخيلة)، وقد نقل الحافظ ابن حجر شرحه عن بعض العلماء فقال: «هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف، ويضر بالنفس إذا كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال، والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم، وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس»[78].

فهذه بعض أمثلة على دخول القيم والأخلاق في النظام الاقتصادي، وهناك أمثلة أخرى كثيرة، لكن المقصود هنا إثبات أن الفكر الإسلامي الاقتصادي صالح للحفاظ على البيئة بخلاف النظام المسيطر أيامنا.

وإذا انتهينا إلى أن النظام الرأسمالي سبب رئيس في المشكلة البيئية، فإنني أرى أن قلة الوعي بالمشكلات البيئية، والإهمال، سببان مهمان أيضا، وقد أفاض في ذلك المختصون بما لا يمكن تفصيله هنا.

المطلب الثاني: القواعد الإسلامية العامة الآمرة بالمحافظة على البيئة:

وقد اجتمع عندي هنا بعض القواعد الإسلامية العامة، وإنما كانت عامة لشمولها المحافظة على البيئة وغيرها كالمحافظة على الإنسان والنسل وغيره.

القاعدة الأولى: منع الإفساد في الأرض:

لعل مصطلح «الإفساد في الأرض» الذي كرره القرآن الكريم مرارا يقابل في بعض أوجهه في زماننا المصطلح البيئي «الاعتداء على البيئة»، وقد نهى القرآن الكريم عن الإفساد في الأرض وذم فاعليه مرارا.

إلا أن معنى الإفساد في الأرض يشمل المعنى المعنوي وهو الإكثار من المعاصي والمجاهرة بها وإشاعة العداوة والبغضاء بين الناس، ويشمل المعنى المادي الذي يقتضي تخريب العمران والأشجار وتلويث المياه وما أشبه ذلك كما قال الإمام الرازي[79].

---

[77] أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم، كتاب اللباس : باب قول الله تعالى «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده».

[78] ابن حجر، فتح الباري 253/10.

[79] انظر: الرازي، التفسير 201/5.

وأقتصر هنا على الآيات التي يُفهم منها ذم «الإفساد في الأرض» بمعناه المادي، مع ذكر ما قاله المفسرون المتقدمون لئلا يُتقول علينا بأن هذا المعنى مخترع موافقة لقضايا العصر الحديث!

وقد بين العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره معنى الإفساد المادي خير بيان فقال:« ومعنى الفساد: إتلاف ما هو نافع للناس نفعا محضا أو راجحا، فإتلاف الألبان مثلا إتلاف نفع محض، وإتلاف الحطب بعلة الخوف من الاحتراق إتلاف نفع راجح، والمراد بالرجحان رجحان استعماله عند الناس لا رجحان كمية النفع على كمية الضر، فإتلاف الأدوية السامة فساد، وإن كان التداوي بها نادرا لكن الإهلاك بها كالمعدوم لما في عقول الناس من الوازع عن الإهلاك بها فيتفادى عن ضرها بالاحتياط في رواجها وبأمانة من تسلم إليه...

وإنما كان الفساد غير محبوب عند الله: لأن في الفساد بالتفسير الذي ذكرناه تعطيلا لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس، فإن الحكيم لا يحب تعطيل ما تقتضيه الحكمة، فقتال العدو إتلاف للضر الراجح ولذلك يقتصر في القتال على ما يحصل به إتلاف الضر بدون زيادة، ومن أجل ذلك نهى عن إحراق الديار في الحرب وعن قطع الأشجار، إلا إذا رجح في نظر أمير الجيش أن بقاء شيء من ذلك يزيد قوة العدو ويطيل مدة القتال ويخاف منه على جيش المسلمين أن ينقلب إلى هزيمة وذلك يرجع إلى قاعدة: الضرورة تقدر بقدرها»[80].

ولعل أوضح آية في ذم الفساد في الأرض بمعناه المادي آية في سورة البقرة تتحدث عن بعض إفساد بعض المنافقين في الأرض، قال الله تعالى:«❐◆✆⓿⍓❶⬧✂✍⬧❑◆🖫✵❼🗐
ﮊ⍓◆⬉⍓🗐✗⍓❼✂🙵❀☞❻⬀⍓⬄☎⍓⓿⬉▦⬂○⬁⑨⍓
▫⍓⑩♑⍓🙵❐◆③⬉♑⇳🖬⍓⌨⍓✂🙵☎⍓⬂⬧⍓❷⬀♈⍓
❐◆✂🙵☎✡□○⬄✍•▤❐◆✂🙵✎✦••⑥⬈⧫⍓🖬❹
✂🙵☎⬂▦☒○❁🙵⑩⍓⬀⍓⬀✾⬀⬄ »(آية 205).

فهذه الآية تنكر على هذا المفسد في الأرض تخريبه للزروع والثمار وقتله للحيوانات، وقد بين الإمام الطبري أن من أوجه هذا الإفساد «إحراقه زرع قوم من المسلمين وقتله حمرهم»[81]، وعدّ الإمام الرازي هذا الفساد أعظم أنواع الفساد فقال: «واعلم أنه على جميع الوجوه فالمراد بيان أن ذلك الفساد فساد عظيم لا أعظم منه، لأن المراد منها على التفسير الأول: إهلاك النبات والحيوان، وعلى التفسير الثاني: إهلاك الحيوان بأصله وفرعه، وعلى الوجهين فلا فساد أعظم منه، فإذن قوله: «❐◆③⬉♑⇳🖬⍓⌨⍓✂🙵☎⍓⬂⬧⍓❷⬀♈⍓❐◆✂🙵☎✡□○⬄✍•▤

---

[80] ابن عاشور، التحرير والتنوير 270/2.

[81] الطبري، التفسير 390/2.

» من الألفاظ الفصيحة جداً الدالة مع اختصارها على المبالغة الكثيرة ...« ❐◆✂✍✦ •• ⑥↗♦❹🖬🔍 ✂🙾⑩🖂 » لا يرضى به فاحذروا غضبه عليه»[82].

وإذا كان بعض المفسرين قد فسروا ذلك بتخريب هذا المنافق لزروع المسلمين وحمرهم فإن بعضهم بين أن ذلك كان في زروع الكافرين، قال ابن عاشور: «أي ذهب يسير في الأرض غازياً ومغيراً ليفسد فيها. فيكون إشارة إلى ما فعله الأخنس بزرع بعض المسلمين، لأن ذلك مؤذن بكفره وكذبه في مودة النبي صلى الله عليه وسلم إذ لو كان وده صادقاً لما آذى أتباعه.

أو إلى ما صنعه بزرع ثقيف على قول من قال من المفسرين إن الأخنس بيّت ثقيفا وكانت بينه وبينهم عداوة وهم قومه، فأغار عليهم بمن معه من بني زهرة فأحرق زروعهم وقتل مواشيهم. لأنَّ صنيعه هذا بقوم وإن كانوا يومئذٍ كفاراً لا يهم المسلمين ضُرهم، ولأنه لم يفعله انتصاراً للإسلام ولم يكن في حالة حرب معهم فكان فعله ينم عن خبث طوية لا تتطابق مع ما يظهره من الخير ولين القول؛ إذ من شأن أخلاق المرء أن تتماثل وتتظاهر، **فالله لا يرضى بإضرار عبيده ولو كفاراً ضراً لا يجر إلى نفعهم؛ لأنهم لم يغزهم حملاً لهم على الإيمان بل إفساداً وإتلافاً ولذلك قال تعالى:** « ❐◆✂✍✦ •• ⑥↗♦❹🖬🔍 ✂🙾⑩🖂 » »[83].

وإذا صحت هذه الرواية فإن هذه الآية من أظهر الآيات الدالة على منع الفساد في الأرض ولو في غير المسلمين إذا لم يكونوا من المحاربين، إذ الفساد بحد ذاته ممنوع في الإسلام.

وقد فهم الإمام ابن حزم معنى الإفساد المادي بوضوح من هذه الآية، بل جعلها نصا فيه، إذ قال بعد أن أوردها :«فمنع الحيوان ما لا معاش له إلا به من علف أو رعي، وترك سقي شجر الثمر والزرع حتى يهلكا –بنص الله تعالى– فساد في الأرض وإهلاك للحرث والنسل، والله تعالى لا يحب هذا العمل ... فإن قيل: فأنتم لا تجبرون أحدا على زرع أرضه إذا لم يرد ذلك، قلنا: إنما نتركه وذلك إذا كان معاش غيره يغنى عن زرعها وهذا بلا شك صلاح للأرض وإحمام لها، وأما إذا لم يكن له غنى عن زرعها فإننا نجبره على زرعها إن قدر على ذلك أو على إعطائها بجزء مما يخرج منها، ولا نتركه عالة على المسلمين بإضاعته لماله ومعصيته لله عز وجل بذلك»[84].

---

[82] الرازي، التفسير 201/5، وقد ذكر قبل ذلك أن من فسر الفساد هنا بالتخريب قال: «إنه تعالى ذكره أولا على سبيل الإجمال وهو قوله (🙾⑩🖂⑨⬁○⬂❶🔍 ▫🖂⑨⬁○⬂🙾⑩🔍🙾🖂) ثم ذكره ثانيا على سبيل التفصيل فقال: (❐◆③↖🙾🖂 ✂🙾✡⇕🖬🔍🖂 ❐◆✂🙾⬁○⇔•✍ •) ».

[83] ابن عاشور، التحرير والتنوير 268/2.

[84] ابن حزم، المحلى ص1712، ط بيت الأفكار الدولية، تحقيق: حسان عبد المنان.

ففضلا عن كون هذه الآية تنهى –عند ابن حزم– عن الفساد المادي في الأرض، بإيذاء الحيوانات والأشجار، فإنها تأمر أيضا باستثمار البيئة استثمارا حسنا، وعدم إضاعة المال البيئي، فلا بد من استخدام الأرض وعدم تركها بورا لا يستفيد أحد منها، مع وجود من يحتاجها.

إن نص ابن حزم هذا في غاية الأهمية لفهم الفكر الإسلامي البيئي على وجهه، إنه يدعو لاحترام البيئة ويدعو إلى استخدامها الاستخدام الأمثل، لئلا يضيع المال، وتنتشر المجاعات، ويسيطر الأغنياء باحتكارهم الموارد على الفقراء.

وقد جاء النهي صريحا عن الإفساد في الأرض في قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام مخاطبا قومه ثمود:« ﴿ ﴾ »(سورة الأعراف: 74).

فقوله تعالى « ﴿ ﴾ » «قيل المراد منه: النهي عن عقر الناقة، والأولى أن يحمل على ظاهره وهو المنع عن كل أنواع الفساد»، كما قال الإمام الرازي[85].

وقد جاء في القرآن الكريم وصف قوم يأجوج ومأجوج بأنهم مفسدون في الأرض، قال تعالى: «﴿ ﴾ » (الكهف:94)، وقد جعل العلماء من معاني إفسادهم في الأرض «القتل والتخريب وإتلافِ الزروع، قيل: كانوا يخرُجون أيام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه» كما قال أبو السعود، والشوكاني، وغيرهم من المفسرين[86].

ولخطورة الفساد في الأرض نفى إخوة يوسف هذه التهمة عن أنفسهم في قولهم: «﴿ ﴾ »(يوسف:73).

---

[85] الرازي، التفسير 164/14

[86] أبو السعود، إرشاد العقل السليم 245/5، الشوكاني، فتح القدير 430/3.

والفساد الذي نفوه عن أنفسهم هنا هو ما «ظهر من أحوالهم وامتناعهم من التصرف في أموال النَّاس بالكليَّة لا بأكل، ولا بإرسال في مزارع النَّاس حتَّى روي أنهم كانوا يسدون أفواه دوابهم لئلا يفسد زرع النَّاس» كما قال ابن عادل في تفسيره[87].

ثم إن الحق تعالى بين في كتابه أن من أسباب الفساد المادي في الأرض وخرابها ودمارها: المعاصي وما تكتسبه أيدي بني آدم من الشرور، فقال :«♦❷🖂♍♦←⑩❼🔀 ←❼🔀×❸🖂🔊🔊 ❷⇦♦♦❒◆✂🔊🔊 ❷🔀☺🖂○❁⌛🔀○🖂💣⇧ ❽🔊⑨🖉③❒🕮 ❶↖❶🔊🔊 ☪❒✂❒☪🔊 ❽🔊🔔🖉✂ ◆🖉➔♦🖃 ☎✂❑➔🖃🔊🔑🔀◪ ❽🔊♍♦←♍❋🖃🖂➔♦🔊 ✂❑➔🖃🔊🔑🔀◪ ♦♌❑↖➔🔊♉🖉❷♦③» (الروم:41) والفساد في هذه الآية هو الفساد المادي كما بينه الزمخشري فقال :«نحو: الجدب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثر الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضارّ. وعن ابن عباس: أجدبت الأرض وانقطعت مادّة البحر. وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر...« 🖃🔀☺🖂○❁⌛🔀💣⇧ ❽🔊⑨🖉③❒🕮 ❶↖❶🔊🔊 ☪❒✂❒☪🔊 » بسبب معاصيهم وذنوبهم»[88].

وقال الرازي: « واختلفت الأقوال في قوله:«❼🔀×❸🖂🔊🔊 ❷⇦♦♦❒◆✂🔊🔊 » فقال بعض المفسرين: المراد خوف الطوفان في البر والبحر، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار، وقال آخرون: المراد من البحر المدن، فإن العرب تسمي المدائن بحوراً لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن أن يقال إن ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار»[89].

وإذا كان تخريب الأرض وإهلاكها وإيذاء الحيوان داخلا في الفساد في الأرض كما تبين، فإن النهي عن الفساد المتكرر في القرآن يتضمن هذا المعنى بلا شك.

وبعد أن ذكر ابن عاشور آيات الفساد قال: «فهذه أدلة صريحة كلية على أن مقصد الشريعة: الإصلاح وإزالة الفساد، وذلك في تصاريف أعمال الناس»[90].

والفساد هنا فساد موجودات العالم كما قال ابن عاشور بعد ذلك.

---

[87] ابن عادل، اللباب 165/11.

[88] الزمخشري، الكشاف 488/3.

[89] الرازي، التفسير 127/25.

[90] ابن عاشور، المقاصد، ص200.

والحاصل من كل هذا أن إفساد الأرض وتخريبها وإهلاكها وإيذاء الحيوان وإتلاف الزروع والتلويث بأنواعه: ممنوع مذموم في الإسلام، يعرض صاحبه للعقوبة، إما عاجلا وإما آجلا.

وإذا طبقنا آيات الإفساد في الأرض بهذا المعنى المادي على واقعنا، فإن الشركات العالمية – ذات الأطماع الربحية المادية الهائلة وصاحبة مذهب الغاية المادية تبرر الوسيلة– التي تسببتْ انبعاثاتُ ثاني أكسيد الكربون من مصانعها في التلوث الجوي وزيادة الاحتباس الحراري المؤدي إلى الإضرار بالبشر والنباتات والحيوانات: مفسدةٌ في الأرض.

وإن الشركات التي دأبت على قطع ملايين الأشجار لتأمين مصالحها الربحية، وتسببت في تصحر مناطق شاسعة في العالم: مفسدةٌ في الأرض.

وإن الأفراد الذين يؤذون الحيوانات للتلهي والعبث مفسدون في الأرض.

وعلى هذا فالإضرار بالبيئة من غير حاجة إفساد في الأرض.

القاعدة الثانية: النهي عن الضرر:

إن من القواعد الفقهية الأساسية في الشريعة الإسلامية قاعدة «الضرر يزال» وهي مستقاة من حديث مرفوع لفظه «لا ضرر ولا ضرار»[91]، وهذه القاعدة من أهم القواعد الفقهية وأكثرها فروعا، وقد قال الإمام أبو داود في حديث «لا ضرر ولا ضرار»: إنه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها[92].

والإضرار بمفردات البيئة كالأشجار والحيوانات والمياه والهواء وغير ذلك داخل في هذه القاعدة العامة.

وقد انبنى على هذه القاعدة عدة قواعد:

- الضرر يدفع بقدر الإمكان.
- الضرر لا يزال بمثله أو بالضرر.
- درء المفاسد أولى من جلب المصالح.
- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.
- يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام[93].

ومن التطبيقات البيئية لهذه القاعدة عند علمائنا:

---

[91] أخرجه بهذا اللفظ الإمام مالك في الموطأ 745/2مرسلا، وأخرجه الدارقطني 77/3، والبيهقي 69/6، والحاكم 57/2 من حديث أبي سعيد الخدري، وله طرق أخرى، دفعت الإمام النووي لتحسينه في الأربعين، ووافقه ابن رجب في شرحه «جامع العلوم والحكم» 207/2-210.

[92] انظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم 211/2.

[93] انظر: د. صالح السدلان، القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع عنها ص 493 وما بعدها.

منع كل من اتخذ معصرة أو فرنا يؤذيان الجيران بالرائحة أو الدخان[94].

ومنع إحداث رائحة خبيثة تضر بالسكان ونحو ذلك[95].

ووجوب بذل الماء مجانا بغير عوض لسقي البهائم وسقي الزروع، كما نص الإمام أحمد، وإن خالفه غيره[96].

القاعدة الثالثة: النهي عن الإسراف:

الإسراف في اللغة هو تعدي الحد وتجاوزه، قال الراغب الأصفهاني : «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان ، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ... ويقال تارة اعتبارا بالقدر ، وتارة بالكيفية ، ولهذا قال سفيان : ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلا ، قال الله تعالى :« ❶❽♦◆❒ ❷❸❼▫❸❸⇳❶➔❍✵☼❸❼ ☎✂☑❒➔▫❸❸⇳❶➔✍ ❷❸❼♦◆❒ (الأنعام:141) «❒◆🕮❒♍· ✂✍☺❍❶⇳❸❸▫❸❸✓✍ ✍✍✍ ✍✍ ✍» ✂✍☺❍❶⇳❸❸▫❸❸✓✍ ♦×✓✍ ♎➔ ✍❒☐✍❍✂✍ ❻❽✍ »(غافر:43) أي المتجاوزين الحد في أمورهم»[97].

ومنع الإسراف على هذا المعنى –وهو تجاوز الحد– من القواعد الأساسية في المحافظة على البيئة، إذ في الإسراف استنزاف لموارد بيئية هامة، وتدمير لأخرى، وقد مر معنا في جنون الاستهلاك شيء من هذا.

وقد جاءت الآيات الكريمة تنهى عن الإسراف، الله تعالى :« ❷❸❼♦◆❒ ❷❸❼▫❸❸⇳❶➔✍ ☎✂☑❒➔▫❸❸⇳❶➔❍✵☼❸❼ ❷❸❼♦◆❒ (الأنعام:141)، قال الطبري في تفسير هذه الآية: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله – تعالى ذكرُه – نهى بقوله :«❒◆❷❸❼♦◆❒ ✍➔❶⇳❸❸▫❸❸⇳❶➔❒☑✂☎ » عن جميع معاني الإسراف ولم يخصص منها معنى دون معنى ، وإذا كان ذلك كذلك ، وكان الإسراف في كلام العرب : الإخطاء بإصابة الحق في العطية ، إما بتجاوز حده في الزيادة وإما بتقصير عن حده الواجب: كان المفرق ماله والباذله للناس حتى أجحفت به عطيته مسرفاً بتجاوزه حد الله إلى ما ليس له ، وكذلك المقصر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه ، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سهمان الصدقة إذا وجبت فيه أو منعه من ألزمه الله نفقته

---

[94] د. صالح السدلان، القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع عنها ص523.

[95] ابن رجب، جامع العلوم والحكم 218/2.

[96] انظر: ابن رجب، جامع العلوم والحكم 222/2.

[97] الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن ص407-408.

من أهله وعياله ما ألزمه منها ، وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه ، كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون» .

وقـــال تعـــالى:«❐◆🖹➔🖬➔❑◆❐ ☎✂❑➔🖬➔🖹◆❐☎✂❑🡐🖃◆❸⇖⌖✍✂◆❐☎✂❑🡐🖃 ❐◆•• ✍➔❶⇳❸⃠▫⃠☑❑➔☎✂ 🗐 ◑⃠☼❋❍🡐❍ ⓫ •• ⑥↗♦🖬⃠❹ ✂✍☺⃠▫⃠❸⇳❶🡐☺⃠◆×✓ » (الأعراف: 31) .

و جاءت السنة تؤكد ذلك قال صلى الله عليه وسلم: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»[98]. وفي الحديث المشهور: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ فقال:« ما هذا السرف؟» فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[99].

إن الإسلام بدعوته إلى عدم الإسراف يدعو إلى الالتزام بحد الكفاية، وفي هذا حسن تعامل مع البيئة إذ لولا الإسراف في استخدام الموارد المائية مثلا لما بلغنا إلى هذا الدرجة من الخوف من شح المياه في بعض البلدان، ولولا الإسراف في الأطعمة لما آلت كثير من الأراضي إلى الخراب.

القاعدة الرابعة: الأمر بالإحسان والرفق:

إن الأمر بالإحسان والرفق في الإسلام يتعدّى الإحسان إلى البشر إلى الإحسان إلى مفردات البيئة من حيوانات وأشجار وأنهار وغير ذلك.

ولعل أوضح نص في هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[100].

فالحديث يتكلم عن إحسان إلى كل شيء، ثم خص الحيوانات بذلك الإحسان، وإن كان لا يرجع للإنسان من إحسانه إلى الحيوانات نفع.

وقد مر معنا في النظرة الإسلامية للبيئة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ثوابا عظيما لمن أحسن إلى كلب بشربة ماء، وذكر عقابا أليما لمن أساء إلى هرة بحبس وإيذاء.

---

[98] أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم، كتاب اللباس : باب قول الله تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده

[99] أخرجه ابن ماجه (425) وأحمد 221/2، وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث، لضعف ابن لهيعة، وحسّنه الشيخ الألباني في الصحيحة 860/7، وهو الأقرب عندي، وللحديث ما يشهد له، من النصوص الشرعية المتقدمة في مبحث الإسراف، ومن مثل قول هلال بن يساف (تابعي ثقة): «كان يقال: في كل شيء إسراف، حتى الطهور، وإن كنت على شاطئ نهر»، أخرجه ابن أبي شيبة وأخرج نحوه عن أبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهما. كما في الفتح 234/1.

[100] أخرجه مسلم (1955) من حديث شداد بن أوس.

قال ابن بطال: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفى كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا، وكل أحد مسؤول عما استرعيه وملكه من إنسان أو بهيمة لا تقدر على النطق وتبيين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة لم يكن له مالكًا فغفر الله له بتكلفه النزول في البئر وإخراجه الماء في خفه وسقيه إياه، وكذلك كل ما في معنى السقي من الإطعام، ألا ترى قوله عليه السلام: « ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة ».

ومما يدخل في معنى سقي البهائم وإطعامها: التخفيف عنها في أحمالها وتكليفها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسان إليها، ومن ذلك ترك التعدي في ضربها وأذاها وتسخيرها في الليل وفى غير أوقات السخرة، وقد نهينا في العبيد أن نكلفهم الخدمة في الليل فإن لهم الليل ولواليهم النهار، والدواب وجميع البهائم داخلون في هذا المعنى»[101].

وسيد من أحسن إلى المخلوقات نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، ولذا جاء إليه الطير يشكو من فجعه بفرخيه، فأمر برده إليه فرد، ففي الحديث عن ابن مسعود قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمّرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرة فجعلت تفرش (أي: ترفرف)، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: من حرق هذه؟ قلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[102].

وجاءه الجمل يبكي من يجيعه فأنصفه، ففي الحديث عن عبد الله بن جعفر قال: «أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم... قال: فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه (والذِفرى من البعير: مؤخر رأسه) فسكت، فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه»[103].

---

[101] ابن بطال، شرح صحيح البخاري، 9/219-220.

[102] أخرجه أبو داود (2675).

[103] أبو داود 2549.وأصل الحديث في مسلم (2492)، وتدئبه:تتعبه بكثرة استخدامه.

وكذلك الجمادات فقد حن إليه صلى الله عليه وسلم جذعُ النخلة[104]، وسلم عليه الحجر[105].

وإذا تخلق المسلم بأخلاق نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، فإن رحمته وشفقته تشمل البيئة، تشملها من حيث كونها مخلوقة من مخلوقات ربه، وتشملها من حيث كونها مسخرة له، مذللة لأمره.

إن مسؤولية المسلم تجاه بيئته عظيمة بهذه القواعد، إنها أوامر ربانية تمنعه من الإفساد والإضرار، وتأمره بالاعتدال والرفق والإحسان في المعاملة مع البيئة.

[104] رواه البخاري (3584) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم. فجعلوا له منبرا فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمه إليه تئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها.

[105] رواه مسلم (2277) عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن».

الخاتمة والنتائج:

يمكن القول: إن الإسلام بهذه النظرة وتلك النظم والتشريعات دين متميز صالح لحل كثير من مشكلات عصرنا، وأهمها هنا مشكلات البيئة، وإن في النظرة الإسلامية من الاعتدال والاتزان في النظر للبيئة ما يجعلها تفوق كثيرا من النظرات الأخرى، لا سيما الفلسفات التي لا تأبه بالبيئة أو الفلسفات التي تنزلها منزلة البشر أو تعلي من شأنها فوق ذلك، إذ لا يمكن تخليص الأرض من تلك المشكلات بمثل هذه النظرات.

وإن في إظهار القيم والأخلاق التي ينبني عليها النظام الاقتصادي الإسلامي ما يعالج كثيرا من أسباب المشكلة البيئية الحالية، على النقيض من النظام الرأسمالي المنفك عن القيم، الذي أدى إلى كثير من تلك المشكلات الحالية.

وإن في فهم مصطلحات «الفساد في الأرض» و«الإحسان» و النهي عن «الضرر» و«الإسراف» فهما سليما في نصوص الكتاب والسنة ما ينطبق –في جزء منه– على وسائل معالجة كثير من المشكلات البيئية الحالية.

وعلى ذلك فإن من واجب المسلمين في أيامنا هذه التحقق بمعاني المحافظة على البيئة واحترامها من غير غلو ولا تقديس، لدفع شيء من المشكلات المحدقة بالأرض والبيئة.

ومن واجبهم إظهار تلك النصوص الدعوة إليها لتظهر الصورة النقية للإسلام العالمي الذي يحافظ على إنسانية الإنسان وبيئته وروحه، وإن في نشر تلك النظرة بين أصدقاء البيئة ما يحسن من صورة الإسلام في قلوبهم، ويدفعهم قدما إلى التعرف عليه.

والحمد لله رب العالمين

- الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 2002م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت256هـ)، صحيح البخاري، (المطبوع مع فتح الباري)، (تحقيق محب الدين الخطيب)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- براون، ليستر، اقتصاد البيئة : اقتصاد جديد لكوكب الأرض، (ترجمة: أحمد أمين الجمل)، الجمعية المصرية، القاهرة، 2003م.
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، شرح صحيح البخاري، (تحقيق: ياسر بن إبراهيم)، مكتبة الرشد، ط1، الرياض، 2000م.
- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر (ت885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، دار الكتب العلمية ط1، بيروت، 1995م.
- البوطي، محمد سعيد رمضان ، مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجا، مكتبة الفارابي، دمشق، سوريا ط2.
_____، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر،ط3، دمشق، سوريا، 2000م.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مؤسسة شعبان، بيروت، لبنان، بدون.
- البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين (ت440هـ)، شعب الإيمان، (تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت279هـ)، جامع الترمذي، دار السلام، (تحقيق: صالح آل الشيخ)، ط1، الرياض، 1999.
- ابن أبي جمرة، أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي (ت699هـ)، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، دار الجيل، ط2، بيروت، 1972م.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت852هـ)، تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، لبنان 1984م.
_____، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (رقم أحاديثه: محمدفؤاد عبد الباقي)، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- الحمد، رشيد، صباريني، محمد سعيد، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ)، المقدمة، دار الفكر، بدون.
- الخليلي، الخليل بن عبد الله بن أحمد القزويني، الإرشاد في معرفة علماء الحديث، (تحقيق : د. محمد سعيد عمر إدريس)، مكتبة الرشد، ط1، الرياض1409.
- الدسوقي، فاروق أحمد، استخلاف الإنسان في الأرض، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر.
- دنيا، شوقي، المدخل الحديث إلى علم الاقتصاد، منهجية ورؤية إسلامية في تناول المسائل الاقتصادية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2006م.
_____، الاقتصاد الإسلامي هو البديل الصالح، سلسلة دعوة الحق الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 1990م.
- دوبو، رينيه، إنسانية الإنسان، نقد علمي للحضارة المادية، (ترجمة: نبيل صبحي الطويل)، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1979م.

- الراغب الأصفهاني، (ت حوالي 425هـ) مفردات ألفاظ القرآن، (تحقيق: صفوان داوودي)، دار القلم، الدار الشامية، ط3، دمشق، بيروت، 2002م.

_____، الذريعة إلى مكارم الشريعة، (تحقيق: أبو اليزيد العجمي) دار السلام، ط1، القاهرة، 2007م.

- ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين (ت795هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، (تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس)، مؤسسة الرسالة، ط7، بيروت لبنان، 2001م.

_____، ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء، (تحقيق: أشرف عبد المقصود) مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر.

- الرماني، زيد بن محمد، الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي، العدد 148، 1425هـ.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (تحقيق: عبد الرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1997م.

- زيمرمان، مايكل، الفلسفة البيئية، من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، (ترجمة: معين شفيق رومية)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006م.

- السدلان، صالح بن غانم، القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع عنها، دار بلنسية ، الرياض، 1417هـ.

- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت951هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- شابرا، محمد عمر، مستقبل علم الاقتصاد من منظور إسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004م.

- ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي (ت بعد880هـ)، اللباب في علوم الكتاب، (تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض)، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1998م.

- ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية (تحقيق: محمد الطاهر الميساوي)، ط1، دار النفائس، الأردن، 1999م.

_____، تفسير التحرير والتنوير، مصورة، بدون.

- العثماني، محمد تقي، تكملة فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم، مكتبة دار العلوم، كراتشي، باكستان، 1420هـ.

- غارودي، روجيه، حفارو القبور، نداء جديد إلى الأحياء، تعريب رانيا الهاشم، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 2000م.

_____، كيف صنعنا القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2000.

_____، وعود الإسلام، الدار العالمية، ط1، بيروت لبنان، 1984م.

- الغزالي، محمد بن محمد (ت505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت لبنان.

- غور، آل، الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان، ترجمة: د. عواطف عبد الجليل، مركز الأهرام، ط1، القاهرة، 1994م.

- فروم، إريك، الإنسان بين الجوهر والمظهر، نتملك أو نكون، (ترجمة: سعد زهران)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م.
- القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1995م.
_____، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، ط1، مصر، 2001م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت751هـ)، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، (تحقيق: علي حسن عبد الحميد)، دار ابن عفان، ط1، المملكة العربية السعودية، 1996م.
- كافين رايلي، الغرب والعالم، (ترجمة: عبد الوهاب المسيري، هدى حجازي)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986م.
- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت774هـ)، تفسير القرآن العظيم، (تحقيق: حسان الجبالي)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 1999م.
- مالك بن أنس (ت179هـ)، الموطأ، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت1031هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- نيوتن، د. ليزا، نحو شركات خضراء، مسؤولية مؤسسات الأعمال نحو الطبيعة، (ترجمة: د.إيهاب عبد الرحيم محمد)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006م.
- النووي، يحيى بن شرف الدين (ت676هـ)، الأذكار، (تحقيق: علي الشربجي، وقاسم النوري) مؤسسة الرسالة، ط1،دار المؤيد، بيروت، الرياض، 2003م.
_____، شرح صحيح مسلم، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة.

التقارير

- تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2009، (تحديات أمن الإنسان في البلدان العربية)، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، طبع شركة كركي للنشر، بيروت،2009.
- تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية 2008 (البيئة العربية، تحديات المستقبل)، تحرير: مصطفى كمال طلبة ونجيب صعب.